قصة عبقري

قصة عبقري

قصة عبقري

اقرأ

٤٢

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

(اجتمع أدباء من كل أفق بمكة فجعل أهل كل بلد يرفعون علماءهم ويقدمونهم حتى جرى ذكر الخليل بن أحمد الفراهيدي فلم يبق أحد إلا قال الخليل أذكى العرب) .

(أبو أحمد النوري)

وهاك قصة الخليل بجمال نفسه وحسن خُلقه

وقوة عبقريته. وليس المؤلف فيها بعد الاختيار

والحبك إلا تفصيل الحوادث

والشعور بعظمة الرجل

الفصل الأول

انطلق الصبية يلعبون فى أزقة البصرة عام ١١٢ للهجرة ، يتراكضون ويتسابقون ، يجتمعون ويفترقون ، وفيما هم فى لعبهم ضاحكون ، إذا أحدهم يصرخ مشيراً إلى رجل أقبل من بعيد ، وهو على بغلته ، يكاد لا يظهر عليها لقصره ، فاجتمع الصبية متقاربين ، وأخذوا يتأملون فيه ساخرين ، وهو يتقدم نحوهم . قال أكبرهم : أنظروا إلى شاعر البصرة ، وحامى لواء قبيلة بنى تميم ، أنظروا إلى الفرزدق ، وقولوا : هل رأيتم أقبح من هيئته وأقصر من قامته ؟ فضحك الصبيان ، وتقدم الفرزدق حتى وازاهم وقد شمخ بأنفه ، ونفخ شدقيه ، و بسط ساقيه ليعلو جسمه على ظهر البغلة ، فيخفى شيئاً من قصره ، فما زاده هذا الوضع إلا غرابة وقوى عجب الصبية ، واشتد اهتمامهم ، وكثر تهامسهم ، أما هو فساءه نظرهم وعبس فى وجوههم علهم يرتدون عنه ، ويخشون نظراته ، ولكنهم أبوا الانهزام أمام تلك النظرات ، وسرهم

عبوسه ، وقصدوا الكيد به ، كما اعتادوا أن يكيدوا لبعض المارة . وشعر هو بذلك ، فخشى أن يصبح سخرية لهم ، ورفع عصاه التى يهمز بها بغلته ، ولوح بها أمامهم ، وقال بصوت أجش ثقيل :

نظروا إليــــك بأعين محمرة

نظر التيوس إلى مُدى القصاب

قال ذلك ، وردده مرتين رافعاً صوته عند كلمة المدى ، وكأنه كان يقول : إنكم تيوس تنظرون إلىّ بأعين محمرة خائفين من هذه العصا التى هى المدية حضرتها للبطش بكم ، ثم يردد قوله :

نظروا إليــــك بأعين محمرة

نظر التيوس إلى مُدى القصاب

وكان إنشاده الشعر بصوت قوى . يخرج من الحنجرة متثاقلاً وتهديده بعصاه ، وكان قد عاد من الحروب التى شنتها المهالبة ، كان كل ذلك يوحى الشدة والخوف ، فتراجع الصبية وجلين ، وقد أخافتهم كلمة المدى وتلويح العصاة أكثر مما استثارهم تشبيهه لهم بالتيوس. تراجعوا إلا واحداً منهم، أشار إليه الصبية يقولون : ها هو ذا الخليل يقصد أمراً مهيباً . قالوا ذلك ، ووقفوا ليروا ماذا يجرى ، وقلوبهم مضطربة . أما الخليل فتقدم قليلاً إلى الفرزدق

بقدم ثابتة ونفس مطمئنة ، وقال : هل أغضبك نظرنا إليك وتأملنا فيك ، فرحت تهددنا وتشتمنا . إنا نظرنا إليك لأنك مليح كما ينظر إلى القرد لأنه مليح . قال الخليل هذا الكلام رافعاً رأسه غير هياب ولا وجل . وما سمع الصبية كلامه حتى صاحوا مهللين ضاحكين . ولم يكن الفرزدق يتوقع ذلك ، فاتقد غيظاً ، وكاد ينزل عن بغلته لينهال على هذا الصبي المتمرد الشجاع ضرباً بعصاه . ولكنه تذكر جريراً — لحى الله جريراً — إنه إذا بلغه أن صبياً من صبيان البصرة هزىء بشاعر بنى تميم ، فوصفه بالملاحة أولاً ثم شبهه بالقرد ثانياً ، إنه حرى بأن يتخذ من هذا موضوع تهكم لاذع . ثم إذا علم جرير — ويح لجرير — أن هذا التشبيه ساءه ، فاعتدى على قائله ، ألا يجعل منه قرداً يتهارش مع الصبيان ؟ ذكر الفرزدق كل ذلك ، فأحجم عن النزول ، وتمسك بزمام البغلة ، وأشار إليها بأن تجد السير . وما كاد ينطلق حتى اجتمع الصبية حول الخليل يهللون معجبين بذكائه وإقدامه .

الفصل الثانى

مر الزمن و إذا الصبي الذكى الشجاع يصبح شاباً . و إذا هو يخرج من غرفته ، وهو يخفى فى طيات ثيابه خنجره ، فتضطرب والدته ، وقد رأته يفعل ذلك ، وتقول : ما بالك ياخليل ، إلى أى أمر مهم تخرج يابنى ؟ إنى خائفة عليك من أصحابك ، وأراهم يدفعونك إلى ما لا تحمد عقباه . فبالله عليك دعهم وشأنهم ، فإنك لم تخلق لما يدعونك إليه . أما رأيت أبا على يتنبأ لك بالعلم الجميل ، و يصفك بحدة الذكاء وقوة القريحة . للعلم خلقت يا بنى لا لشىء آخر ، ألا فاعطف على قلب والدة وضعت فيك أملها ، وأحبتك أكثر ما تحب الأم ابنها . فنظر الخليل إلى والدته نظر العطف والمحبة ، وقال : أنا ابنك المطيع يا أماه ، ولكن أتراك نسيت شجاعة بنى أزد وقوة مراس الفراهيد ؟ ألست حفيد تلك القبيلة وابن هذه العشيرة ؟ أو تنجبان الجبناء ، ثم أنى لا أفعل إلا ما يقتضيه فرض الدين علىّ ، فقرى عيناً ولا تحزنى . قال

الشاب ذلك وانطلق يعدو ، وهو يخترق شوارع البصرة لا يلوى على شىء ، وكأنه ذاهب إلى موعد مع حبيب . ويخرج من البلدة ، فيعطف فى منعرجات خفية وشعاب وعيرة تفضى به إلى ما وراء أكمة ، فيجد شيخاً وسيما قد أحدقت به حلقة من شبان أشداء ، ينظرون إليه بإيمان ، ويشير الشيخ إلى الخليل : أن اجلس ، فيقعد القرفصاء ، ويصغى بكليته إلى الشيخ ، وإذا بهذا يقول : لقد كفر بنو أمية وضلوا سواء السبيل ، فلا أمر بالمعروف ، ولا نهى عن المنكر ، ولا اعتصام بحدود الله . يعلمون الناس النفاق ، ويدعون إلى المعصية ، فجزاؤهم وتابعيهم القتل ، وساء سبيلاً . يجتمع إخواننا من الخوارج من كل صقع ليدافعوا عن دين الله ، ويذبوا عن حماه . وسيكمنون لجيش الخليفة الآتى من الشام ، فيبادرونه بالسيف ، ويقتلون أمة الباطل وأعداء الله فهل أنتم على استعداد ؟ فيصيح الحاضرون بصوت واحد : نحن شراة فإلى الجهاد . فيقول الشيخ ستغادرون البصرة صباح الغد إلى حيث تجتمعون بالإخوان ، والأمر فيكم لأبى نحيم ، ولاتنسوا رأى الخليل ، فهو حكيمكم ، وإليه مشورتكم . وسأرسل إليكم النجدة ممن استثيره من أصحابنا الإباضيين .

وينفض المجلس على أن يخرجوا صباح الغد ، و ينطلق الخليل
إلى الجامع ليودع حلقات العلم فيه ، فهي التي سيفقدها من البصرة
وسيحن إليها ، فما أحراه بأن يتزود منها قبل خروجه . ويجوب
تلك الحلقات ، فتجتذبه حلقة لشيخ كبير ، هو أيوب السختياني
كان يمر بها فلا يقربها ، لأن أصحابه كانوا يتقونها عملاً بنصيحة
شيوخهم . فقد كان هؤلاء يدّعون أن المتصدر بها يدع الحق
الباطل . و يتوق الخليل إلى سماع شيخ السنة هذا الذى اشتهر
العلم وتربأ به نفسه أن يخرج من البصرة إلى غزو لا يعرف أيان
ينتهي دون أن يستمع إلى شيخ تفرد بالمعرفة واشتهر بالعلم .

يقف على تلك الحلقة ، فيسمع كلاماً ما سمع ألطف منه ، فتؤخذ
نفسه به ، وينظر إلى الشيخ ، فيراه يتفرس في وجهه وهو يتكلم ،
فيطرق رأسه ، ويجلس بين الناس ليتجنب تلك النظرات ،
فيسمع الشيخ يقول : حدثونا عن البراء بن عازب أن رسول الله
قال : لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق ، ولو
أن أهل سماواته وأهل أرضه اشتركوا في دم مؤمن لأدخلهم
الله النار .

كذا يقول رسول الله ، وأين هذا مما يدعيه بعض أهل

الأهواء من وجوب قتل كل من لا ينضم إلى حزبهم، و يقول بمذهبهم يدعون أن من سواهم كافرون ، فكأنهم لم يسمعوا حديث رسول الله حيث قال : ما أكفر رجل رجلاً إلا باء أحدهما بها إن كان كافراً ، و إلا كفر بتفكيره .

وطفق الشيخ يورد من ذلك أقوالاً كانت نفس الخليل تضطرب لها ، ومما قال عن عبدالله بن مسعود ، قال قال النبي (ص) : لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان . وزنى بغير إحصان . وقتل نفس بغير نفس . قال الشيخ ذلك وكأنه قصد إسماع الخليل . ثم أضاف قائلاً : أرأيتم أيها الناس مسلماً يقتل مسلماً ، والروم متحفزون للقضاء علينا جميعاً ، ألا بئس تشتت المسلمين وتصادمهم ، ألا من ادعى حب الإسلام . فليخرج إلى قتال من يحاول طرد المسلمين من بلادهم لا إلى قتال من نصبوا أنفسهم للدفاع عنها .

وتنفض الحلقة ، فيقوم الخليل ، وهو يقول فى نفسه : والله لقد صدق الشيخ ، وما يعلم أحد خطأ معلمه حتى يجالس غيره ، كيف يقتل المسلم المسلم إذا أخطأ برأيه ، وكيف يقوم أمر المسلمين إذا وجب عليهم الخروج على صاحب الأمر فيهم ، كلما ظهر لهم

منه هفوة أو بدت لهم منه خطيئة .وما أرى أصحابنا إلا استهوتهم شجاعتهم ، واستحكمت منهم صلابة رأيهم ، فقعدوا للمخطئين كل مقعد ، يريدون تقتيلهم و إرجاعهم إلى الحق وهم لمّا يعيدوا إليه إنساناً ، يَقتلون فيُقتلون إلى ما شاء الله . ولا يزال المسلمون فى نقصان إلى أن ينقضى أمرهم ، ألا بئس الرأى ما ارتآه أصحابى.

وتصور نفسه وهو يذبح أخاً له مسلماً من الوريد إلى الوريد فاقشعر بدنه هولا ، وعاد إلى البيت مكفهر الوجه ، واستقبلته أمه فوجدته على غير ما تركته ، فهالها الأمر وصارت تستفهم منه حتى حدثها بما يجول فى خلده ، فقوت عزمه على عدم الخروج فقال لها : لن أخرج لقتال جيش الخليفة . وما كاد ينهى جملته هذه حتى صفقت فرحاً ولـكنه قطع بهجتها بقوله : أعدى لى عدتى فسأذهب إلى بلاد الروم مجاهداً . وذهب منذ اليوم الثانى إلى الثغور للدفاع عن الإسلام .

الفصل الثالث

عاد بعد زمن موفقاً مظفراً ، وكان همه بعد عودته أن يستزيد من علم أيوب ، وأن يتفقه بمعرفته ورأيه ، فوجد أستاذاً يعرف حق الطالب المجد ، ويقدر الموهوب ذكاءه ؛ وإذا بالخليل يصبح أخص تلامذته وأقربهم إليه . ولا يمضي القليل من الزمن حتى يعلم الخليل من السنة والحديث أكثر مما يعرفه كل أصحاب الشيخ .

كان الخليل يسمع من شيخه مديحاً كثيراً . ويلقى منه محبة خالصة ، لكن ذلك كان يزيده تواضعاً واحتراماً . كان شأن الخليل شأن معظم العلماء النابغين ، يصرفهم نبوغهم عن الاكتراث بالشهرة وعن الاحتفال الشديد بالنفس ، بل كان محتقراً لنفسه ، لا يقدرها حق قدرها ، يظن فيها السوء ، ويحملها المتاعب .

وكان كثيراً ما يقف على حلقة أصحاب العربية والنحو ،

فيرى الجدال محتدماً بينهم والاختلاف قائماً . ويستهويه علمهم الذى يطلق المجال للفكر ، ويحسن للقريحة النظر ، فينوى الانتماء إليهم ، فيجلس معهم سنة ، وهو يسمع ولا يتكلم . وكيف يتكلم بما لا يعرف ، وكيف يجادل فى أمر لا بد أن ينقطع فيه . كان يتهيب العلم ، ويخشى الزلل فيه . ولما كانت السنة الثانية من انتمائه إلى حلقة العربية صار ينظر فى المسائل ، ويتأمل صعوبتها ، ويفكر بحلها ، ولكنه ما زال صامتاً لا يتكلم مع أن غيره كان يكثر من القول و يتبسط فى السؤال .

انقضت السنة الثانية ، والخليل لا يثق بعلمه فى النحو ، ولا يقدم على السؤال . فلما كانت السنة الثالثة صار يتدبر العلم الذى يتلقاه وقد انبسط له منهاجه ، واتسع فيه أفق تفكيره ، ولكنه ما برح يربأ بنفسه عن الاشتراك فى الجدال والمناظرة ، يهابهما ويعظم شأنهما . وكان يذاكر رفاقه بعلمه خارج الدرس ، فيلقون منه حذقا ومعرفة ، ويتنبأ النبهاء منهم له بنجاح عظيم . أما غير النبهاء فلا يرون فيه إلا مستمعاً ناصتاً ، وطالباً هادئاً ، وذكاء متوسطاً .

وتنقضى السنة الثالثة ، وتحل الرابعة ، فإذا الصمت ينكشف

عن علم خزن تحته ، ورأى كنز فيه ، و إذا بالخليل يسأل الأستاذ سؤالا يدهشه به ، فيجيبه عنه ، وهو ينظر إليه معجباً . وتتوالى الأسئلة من الطالب النجيب ، ويكثر كلامه ، فيلتفت الرفاق إليه ، يكبرون علماً قوياً ، ونظراً عميقاً يبدوان من شاب فى مقتبل العمر ، لم تكن دلائل النجابة تبدو عليه ظاهرة فياضة . كان يغوص بسؤالاته فى أصول النحو ، وكأنه يريد تقرير قواعد جديدة فيه ، لمّا يكتشفها أصحاب العربية .

ويقضى السنة الرابعة ، وهذا شأنه يسأل و يستفهم ، و يجوب آفاق النحو ، و يبعث المسائل فيها ، والأستاذ يزداد تعجباً منه وحباً به ، والطلاب يقبلون عليه للاستفادة منه ، والاستقاء من ينبوع علمه ، حتى إذا انقضت تلك السنة صاروا يشيرون إليه بالأصابع .

الفصل الرابع

أقبل رفيقه أبو المعلّى إليه يوماً وقال : يا خليل ! لعلك لم تقدر الشأو الذى أدركته فى علم العربية والغاية التى ستدركها منه . لقد فقت شيخنا وتعديته ، وصار من حقك أن تترأس حلقة فى الجامع ، فتفيد الناس من علمك ، وليس شىء أصح لذلك من أن تناظر شيخاً فتفحمه وتظهر عليه ، فيعرف الناس فضلك ، ويسير ذكرك ، ويلتئم محبو المعرفة حولك ، وإنى أدرى أنه قبيح بك أن تناظر أستاذك الذى به تخرجت ، أما أن تقوى على شيخ آخر فحق من حقوقك . وهذا أبو عمرو بن العلاء شيخ العربية — الذى قضى خمسين سنة يدرسها — يقيم درساً للنحو فى الغد ، يجتمع إليه فيه الشيوخ والطلاب ! فما عليك إلا أن تضع له أسئلة تنتهى منها إلى مناظرته و إفحامه . وذلك حق لك إن لم تطلبه اليوم ، فستطلبه فى المستقبل ، مهما كان بعيداً .

قال الخليل : لقد سولت لى نفسى أمراً كهذا ، ولكنى أحجمت عنه حتى اليوم لأنى خشيت على نفسى ، إن أنا ظهرت فى المناظرة ، أن يأخذنى من الخيلاء ما يصرفنى عن التعلم . ومن حق نفسى على العلم ومن حقه عليها ألا يصرفنى عنه زهو أو باطل .
قال صاحبه : إن خشيتك ضمان لك مما لا أرى خوفاً عليك منه ، فإلى الغد أيها الرفيق النابه .

عقدت حلقة النحو فى غد ذلك اليوم ، واجتمع الناس فيها من علماء ومتعلمين وشيوخ وشبان ، وأقبل أبو عمرو بن العلاء أستاذ العربية — وكان شيخاً جليلا مهيباً قد جاوز الثمانين — فنهض الحاضرون إجلالاً ، فتصدرهم على طنفسة بسطت لأجله . وشرع فى درسه بعد حمد الله . وكان الخليل وصاحبه قد اتخذا من الحلقة مكاناً ظاهراً ، ومع الخليل دفاتره ، وصاحبه يهمس فى أذنه حيناً بعد حين كلمات التشجيع ، يقول له : إن هذا يومك ياخليل ، وسيصغر علم هذا الشيخ المسن أمامك ، وسيتحدث الناس جيلا بعد جيل بغلبتك له . هذا والخليل يبتسم له و يطمئنه وما عتم أبو عمرو أن غاص فى عويص مسائل النحو ، فظهر علم وفضل كبيران ، فالرجل متمكن من النحو ، عارف بخفاياه . على

أن هذا العلم كان حديثاً ، ووجوه التفسير فيه ضيقة ، والقياس فيه قليلاً . وعثر الشيخ بمسألة كان الخليل مجلياً فيها ، فابتهجت أسارير رفيقه ، ومال إليه يقول : لقد أزفت الساعة ، هيا أظهر ما عندك ، واسأل سؤالك ، وسيرتبك الشيخ . قال ذلك ، وتهيأ لسماع المناظرة التى لم يكن يشك فى نتيجتها . ولكنه انتظر كثيراً والخليل مطرق لا يتكلم ، والشيخ ماض فى بحثه ، وقد انتقل إلى قضية جديدة . وعجب أبو المعلى من وجوم الخليل ولم يجد لذلك تأويلاً إلا أن الخليل لم يشعر بصلاح المسألة التى مرت للجدال ، فصار ينتظر أن يعثر الشيخ مرة أخرى . ولم يطل انتظاره ، فهذا أبو عمرو يطرق بحثاً هو مكان القوة من تتبعات الخليل . فاطمأنت نفسه ، وأشار إلى هذا : أن قد قرب الحين . وأتى الشيخ فى بحثه بأقوال قديمة مبعثرة . والتفت أبو المعلى إلى الخليل وقال : إليك وسعداك . فأطرق الخليل أكثر من ذى قبل ، وازداد عجب صاحبه واضطرابه . وقال له يدفعه : ما دهاك يا صاحبى أنسيت ما أتيت لأجله ؟ أيسرك أن يبقى علمك دفيناً تطوى عليه أضلاعك ؟ فلم ينبس الخليل ببنت شفة ، ولم يعثر الشيخ بعدها ، بل أتى ببحثه من كل جليل ووثيق . ثم ختم دروسه

وقرأ الفاتحة . وأقبل الناس إليه يحيونه و يبجلونه . ونهض الخليل يحمل دفاتره ، وأبو المعلّى قلق غضبان . قال : إنك ياصاحبي أحد شخصين إما جبان و إما معتوه ، وأياً كنت ، فقد أضعت فرصة لو نطقت بها لخرجت رئيساً من رؤسـاء العربية . قال الخليل وهو يبتسم ابتسامة المستهزىء : لست جباناً ولا معتوهاً ، ولـكنى رأيت شيخاً هرماً قد حمل العلم ستين سنة وأفاد الناس وترأسهم خمسين عاماً ، رأيته يخرج علماً من عنده اكتشفه وأذاعه ، فأخذته من شيوخى سهلاً يانعاً ، ثم فتق لى منه عدد من المسائل ما كنت لأجدها لولاه . فوجدت قبيحاً بى أن أسقطه بها — وقد أخرجتها بفضله — فأفضح علمه فى البلد ، وأضيع حقه وحرمته ، لا فعلت ذلك أبداً .

الفصل الخامس

بهذا الخلق انطلق الخليل فى الحياة ، ودخل معتركها ، ونفسه راضية بما أقرها عليه ، مطمئنة إلى أمرها لا تجادل صاحبها ، ولا تورده مورداً غير مورد الكرم والمروءة . كانت تلك النفس تسمو ، وصاحبها يقود زمامها فلا يتعبه الصعود ، والمرء قوى بما عقد الهمة عليه .

وانقطع إلى النحو ، واتصل بأبى عمرو بن العلاء ، و بسط له المسائل التى وجدها ، فأعجب بها ، وشجعه على المضى ؛ وأحدث فى نفسه الثقة بنبوغه ومقدرته . فانطلق إلى التفكير والإبداع ، وكانا أعز سجاياه ، فما كان الناس يرونه إلا مطرقاً يعمل فكره ، وسائراً على غير هدى ؛ وكان لا يشعر بنفسه إلا وهو فى الصحراء ، وقد خرج من المدينة ، فيرتد على عقبيه . وانكشفت له مسائل النحو فصار يبحث عن قواعد عامة يحصرها بها ؛ و يعود إلى التفكير هذه المرة أكثر من ذى قبل ، فالقواعد العامة المنطقية ليست

أمراً سهلاً إيجاده فى لغة كثرت لهجاتها ، وتوزع أهلها فى بلاد واسعة . ولكن الخليل ليس من أولئك الذين توقفهم الصعوبات . كان إذا وجد فى قياسه خللاً ، أحدث قياساً جديداً ، بل قياسات عديدة . ولم يكن يرتضى بالنتيجة التى يصل إليها ، مهما كانت خلابة ، بل كان يأبى أن يخلب بالظواهر الخداعة . وسر الأمر فى ذلك أنه لم يكن يعمل ليرضى من نفسه حباً فى الشهرة ، أو رغبة فى الظهور ، أو ميلاً إلى التبجح . كان يجد لذة فى الفكر ، وسروراً فى التأمل ؛ فلا يثنيه شىء عنهما . حتى إذا كشف عن سر لم يجعل ذلك غاية سروره ، بل عاد إلى التأمل فيه ونقده بل نقضه .

واكتشف فى النحو قواعد وضوابط أدهشت شيوخه ، وأظهرت عبقريته ، فآمن بها أكثر الناس ريباً . وأحدق به العلماء ، يرفعون من شأنه ويمدحونه ، فدخل فى نفسه شىء من الاعتزاز الذى يصيب كل الناس ، وما كان له أن يعتز ، فأُرسل إليه من ينقض تشامخه .

هذا رجل يأتى إليه ، ومعه غلام ، فقال له : هذا ابنى وعزيزى ؛ ورغبتى إليك أن تكمل تعليمه ، وتحسن إرشاده .

فقال الخليل للغلام : اقترب يا بنى ، ودعنى أسألك أسئلة أدرك بها درجة معرفتك . فقال الغلام بجرأة : سل ما تشاء . قال : يا بنى ! أرأيت هذه النخلة ؟ قال : نعم . قال : فصفها لى . قال : إن لوصفها وجهين ، فإما أن يوصف ما حسن منها ، فتبدو صالحة ، وإما أن توصف مساوئها ، فتبدو سيئة . أفبمدح أم بذم تريد أن أصفها ؟ قال : أحسنت يا بنى بهذا التفصيل ، وإنى أفضل أن تمدح نخلتى ، فتحببها إلى . قال : إنها حلو مجتناها ، باسق منتهاها ، ناضر أعلاها . قال الخليل : حسن يا بنى ، وعساها أن تكون كما قلت ؛ فذمها لى حتى أعرف سوءها . قال : إنها صعبة المرتقى ، بعيدة المجتنى ، محفوفة بالأذى . فنظر الخليل إلى الغلام مشدوهاً مدهوشاً : غلام لمّا يبلغ الحلم يحسن من الكلام والأدب ما لعل العلماء يعجزون عنه . تخيل نفسه بهذه السن ، فتذكر أنه لم يكن يتصور الأشياء كما يتصورها هذا الغلام ، ولا يحسن من الفكر ما يحسنه ، وبدا له أن الغلام إذا بلغ من العمر سنه كان بحراً فى العلم يغترف منه ؛ فصغرت نفسه عنده ، وسقط اعتزازه بها . والتفت إلى الغلام وقال : يا بنى نحن إلى التعلم أحوج منك .

لم يكن هذا الغلام إلا النظّام ؛ ذلك الرجل الذى ترأس المعتزلة يوماً ، والمعتزلة أئمة البيان ، وأسياد القول ، بل وصفوا بالكلام ، ونسبوا إليه ، فسماهم الناس متكلمين ، على كره منهم بهذا اللقب . ولعله خفى على الخليل أن ذكاءه غير ذكاء الغلام ؛ رزق هو من التفكير والنظر العميق ما لم يرزق النظام ، واتصف هذا ببيان و بلاغة وانطلاق لسان لم يؤتها هو . وكذلك عد نفسه مقصراً أمامه ، وكذلك أراد الله له الخير ، فأبعد الخيلاء القتّال عنه .

الفصل السادس

انقطع إلى التعليم ، يجد فيه تسلية ، وضرباً من اختبار آرائه ، وتوطيد علمه . وقد يجد فيه الفكاهة الكثيرة .

وقف حمار على باب الخليل ، ونزل منه رجل عليه علائم السفر ، ثم أنزل ابنه ، وطرق على الباب طرقاً مستمراً ؛ فأقبل الخليل يستجلى الخبر ، فوجد الرجل وابنه ، فحياهما ودعاهما للدخول ، فدخل الرجل ، وهو يظهر الرغبة فى السرعة ؛ وعرف الخليل ذلك منه ، فأراد أن يرضى رغبته ، فعجل إليه بالسؤال عن بغيته ؛ فشمر الرجل عن ساعديه ، وقال يتعمد البلاغة : نبئت بنبوغك ، وأسمعت الشيء الكثير عن ذلك فعوّلت على أن أجمع ابنى بك ، فيتعلم منك ، فجئتك به من سفر بعيد تحملت مشقته ؛ ولا إخالك إلا رأيت الحمار الذى حملنا . قال الخليل ، وهو ينتظر ختام القصة : نعم رأيته ، وإنه لجميل . قال الرجل : أريدك على أن تؤدب ابنى شيئاً من علم النجوم ،

وأن تعلمه ما يكفيه من النحو ، وأن تلقنه ما يحتاج إليه من الطب ، وأن تفهمه فرائض الفقه ؛ ثم نظر الرجل إلى الباب ، وأشار إليه وقال : إن الحمار على الباب ينتظر فراغك من ذلك لنعود عليه ... ضحك الخليل فى نفسه ضحكاً كثيراً أخرجه عن اعتداله وجده ، فقال : إلىّ يا بنى لأعلمك ما يرغب والدك من هذه العلوم . اعلم يا بنى أن الثريا فى وسط السماء ، وكفاك بذلك معرفة من النجوم ؛ وأعرف أن الفاعل مرفوع ، و بتلك المعرفة بدىء النحو ، ولعله بها يختم ؛ ولتدرك أن الهليلج الكابلى دافع للصفراء ، وهذا من الطب فى مكان عظيم . واعلم أنه إن مات أحد وترك ابنين ، فماله وثروته وممتلكاته وأمتعته تقسم بينهما سواء بسواء ، وذلك أصل علم الفرائض . إنك يا بنى إن عرفت ذلك ، أدركت من العلوم التى ذكرها والدك ما يليق بك — وأنت ابنه — أن تعرف منها . فشكر الرجل الخليل وقال : قم يا بنى ، ولا تنس ما قال الشيخ لك ؛ وفتح الباب ، فوجد الحمار ينتظر عودتهما ليحملهما والعلم الذى أصاباه .

الفصل السابع

انقطع الخليل أمداً طويلاً عن الناس ، وصار أصدقاؤه يبحثون عنه ، فلا يرونه . ومنهم أبو المعلى بحث عنه كثيراً فلم يجده ، وسأل عنه فى بيته ، فقيل له : إنه يخرج فى الصباح الباكر ، فلا يعود إلا فى الأمسيات المتأخرة . وترصده صباح ذات يوم ، فرآه يسير فى غير التفات ، فتبعه فألفاه يخرج من المدينة ، فعجب من أمره وظل يتبعه ، فوجده يسير على غير هدى ، فتقدم إليه وحاذاه ، فلم ينتبه الخليل ، فجذبه من ساعده ، فاضطرب ونظر إليه وقال : هذا أنت يا أبا المعلى ، ما الذى أتى بك ، قال : لعلى عاشق ولهان مثلك ، أهيم فى الصحراء ، أتصور خيال عشيقتى فى رمالها . قال الخليل : دع عنك هذا ولا تهزل فما نحن فى الهزل قال : ففيم إذن نحن ، أوليس العشق هزلاً وعبثاً ؟ آه عفواً ، فالمغرمون لا يبيحون للناس أن يسخروا من حبهم ، فلن أهزل بل أجد ، قل لى : من هى ليلاك ؟ قال الخليل : لا ليلى عندى

ياهذا . قال : لعلك تريد أنك لمـّا تجن كمجنون بنى عامر، فستجن أو لعلك جننت وأنت لا تدرى ، قل لى : من هى حبيبتك ؟ فنظر إليه الخليل نظر الدهشة وقال : ألم أقل لك لست عاشقاً ؟ قال : إن كنت غير عاشق ، فذلك أعجب ، ما كنت أقدر أن المرء يؤثر الصحراء على المدينة ، فيهجر الناس حتى يخالوه مفقودا، فقل لى ما بك حتى أطمئن . قال : إن ما بى لا يهمك . قال : لقد زدتنى حيرة ، أذكره فسيستثير كل نفسى . قال : أفتخفيه إذا ذكرته ؟ قال : نعم ، فما هو ؟ أخرج الخليل من كمه صحيفة ، وقال : اقرأ . فتأمل أبو المعلى فى الصحيفة ، فوجد كتابة علتهـا النقاط من فوقها وتحتها ووسطها حتى أضاعت هيئة الـكلمات . فقال : ما هذا ؟ أتلغز إلى شيء أم أنت فى هذر ؟ قال : لا هذا ولا ذاك . ولـكنك تعلم أن الحروف التى تتشابه صورتها نميز بعضها عن بعض فى الكتابة بنقاط ، كالجيم تميز عن الحاء بنقطة فى أسفلها . قال : نعم ، إن هذا أمر بديهى . قال : وأنت تعرف أيضاً أن أبا الأسود الدؤلى رحمه الله ضبط حركات الحرف من فتح وضم وكسر وسكون بالنقاط أيضا ، توضع بأعلى الحرف أو أسـفل منه أو بيمينه أو بشماله ، وأنت

تعرف أنا نستعمل ذلك إلى يومنا . وهكذا تختلط النقاط المميزة للحروف بالنقاط المميزة للحركات ، كما ترى فى هذا الرسم. قال أبو المعلى : يا للعجب . من ذا الذى يخطر له ببال أن يفعل فعلتك ، وينسى أن لا مجال لاختلاط النقاط ، إذا كتب كل نوع منها بحبر خاص . فالنقاط المميزة للحروف تكتب بالأسود والضابطة للحركات بالأحمر . قال : إن ما يشغلنى و يبعدنى عن الناس هو تسهيل الأمر على المتعلمين والكاتبين والقارئين ، أريد أن أجد ما يكتب الناس به دون تغيير الحبر ، وأود ألا يضطرب أمر المتعلمين من كثرة النقاط واشتباكها .قال أبو المعلى: أنت تقصد البدعة والخروج على ما ألفه الناس، ووضعه الصحابة ورضوه ، وكتبوا به المصاحف ، وصار رسماً على المسلمين . فوالله لا يعرف الناس منك هذا حتى يتهموك بالشيء الكثير . دع عنك هذا الهذر ، وعد إلى رشدك . قال الخليل : ألم أقل لك إن الأمر لن يستهويك ، ولن يهمك . قال : ولكنك تفكر فيما لا فائدة منه ، ولا أجر لك فيه . ثم ماذا لعلك تجد غير ما اعتمده أبو الأسود الدؤلى ، وأقرته النحاة والكتاب ؟ فابتسم الخليل

وقال: ذلك سؤال محبب إلى، وهو الذى استهوانى، ومنعنى عن الناس، فان أخفيته حتى آذن لك، بسطته أمامك.

قال أبو المعلى متشوقاً، أنا سامع لك ما تريد. فقال الخليل: الأمر الذى خطر على بالى هو على غاية من البساطة، وذلك أن يرسم فوق كل حرف محرك صورة حرف المد الذى يقابل حركته فان كانت حركته الفتح وضعنا عليه ألفاً صغيرة، وإن كانت الضم وضعنا عليه واواً صغيرة، وإن كان الكسر وضعنا ياء صغيرة. قال: ما أعجب ماتقول، إنك تشوه الخط ياصاحبي، وتزيده ارتباكا. قال: لا يا هذا، أنظر الجمل المحررة فى الصحيفة التى لم تستطع قراءتها أنظرها هنا، أليست مقروءة؟ فنظر أبو المعلى، فوجد خطاً قد علته حروف عديدة من الألفات والواوات والياءات، فلم يستحسنه وقال: لقد شوهت الخط وأسأت إليه، فعد عن غيك. قال: لن أعود وسأدعو الناس اليه، حين أتم تصحيح بعض نواقصه، فهز أبو المعلى كتفه، وانطلق يتحدث بحديث آخر. أما الخليل فما اتبع نصيحة صاحبه، بل أذاع طريقته بعد تحسينها، فاستقبلها الناس بالهزؤ، وقليل منهم بالاستحسان. فما زال يدافع عن أسلوبه حتى أقنع كثيراً من مخالفيه، وبقى قوم متعصبون للقديم

لم يقنعوا ، وخافوا على نص القرآن أن يتغير بهذه البدعة ، فأذعن لهم الخليل ، وأوجب على طريقته أن لا تتخذ فى القرآن. وتوفى، وفى بلاد الإسلام من لم يرض بها ، وهم أهل الأندلس تعصباً أو لغير ذلك ، ثم أذعنوا لحسنها ، بل أذعن علماء القراءات لها ، فأدخلوها فى القرآن ، وذلك بعد وفاة الخليل بدهر .

الفصل الثامن

كان مقام الخليل يعلو بين الناس ، ونظرتهم إليه تزداد إجلالاً وإكباراً ، وكان هو يزداد تواضعاً وحسن أخلاق ؛ وأهم من ذلك أن علمه كان يربأ به عن أن يهتم بكيد الناس ، وأن يعبأ بأذاهم . كان يصنفهم طبقات ، فيرى أن لكل طبقة منهم حقاً يوجب عليه ألا يضمر لها الشر ، مهما كان اعتداؤها عليه شديداً . كان ينظر إلى الناس نظراً عميقاً ، ويجعل موقفه منهم تبعاً لصنفهم ؛ فالمعتدى عليه لا يمكن إلا أن يكون واحداً من ثلاثة : أعلى منه مقاماً ، أو مساوياً له فى الرتبة ، أو دونه . وكل من هؤلاء يستحق أن يسكت عن هفوته . اسمع قوله فى ذلك حيث قال

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب ... وإن كثرت منه على الجرائم
وما الناس إلا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومثل مقاوم
فأما الذى فوقى فأعرف فضله ... واتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذى مثلى فان ذل أو هفا ... تفضلت إن الفضل بالعز حاكم
وأما الذى دونى فان قال صنت عن ... إجابته عرضى وإن لام لائم

ما هذه النفس ، وما أصفى جوهرها ، وأكثر رشدها ، وأحسن حكمتها . لا ريب أن سفيان الثورى لم يكن مغالياً حين

كان يقول : « من أحب أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك ، فلينظر إلى الخليل بن أحمد ». لقد كان مسكا وذهباً، بل لو كان خير من صفات المسك والذهب فى الجوهر ، لكان له . لم يكن سفيان مغالياً ؛ فهذا أبو حاتم يؤيد قوله وينشد فى الخليل :

قد صاغه الله من تبر ومن ذهب   وصاغ راحته من عارض هطل

لم يكن فى ذهن الخليل من الفراغ ما يشغله بالخصام مع الناس ، والتصدى لمعاداتهم ؛ بل كان يضنّ بنبوغه وبوقته أن ينفقه فيما لا يُرجى خير منه . ثم إن التشفى ضعف يصيب الإنسان فإن كان عاقلاً منع نفسه منه ، وعوضها عن لذته بلذة العلوّ والتسامى عن سفاسف الأمور .

بهذا العقل وذلك الخلق كان يتهيأ للخليل من الوقت والفراغ وصفاء الذهن ما يسعفه بالإبداع والخلق . كان يطلق فكره للأشياء المحيطة به ، يحاول استخراج كنهها ، والوصول إلى حقيقتها ، لا يرى ظواهرها فقط ، بل يحاول أن يستخرج منها أصولاً تجمع فى قانون موحد، تلك الظواهر المختلفة المتضاربة المتشعبة . وذلك شأن المبدعين .

الفصل التاسع

خرج يوماً وأبو المعلى يسيران فى شوارع البصرة وأسواقها ، يتحدثان حيناً ويصمتان حيناً آخر ؛ وكان أبو المعلى أكثر قولاً من صاحبه ، وأشد تمسكا بالحديث . وما زالا يسيران حتى دخلا سوق الصفارين — وهى كسوق النحاسين اليوم ، تعمل فيها الأوانى النحاسية وتصفر — ويسرع أبو المعلى فى مشيته لينجو من أصوات النحاس وطرقه ، وكانت تبلغ أذنَه فتدوى فيها ، وتثقل عليها ؛ ولكنه يرى الخليل متباطئاً واقفاً حيناً بعد حين ؛ فيقول له رافعاً صوته ليسمعه : هل يلذ لك هذا الصوت المزعج ، فتسير الهوينا ، وكأنه الموسيقى التى تسمعها فتستحسنها ، ولا تريد الابتعاد عنها ؟ لمعت عينا الخليل عند سماعه كلمة الموسيقى ، وربت على ظهر أبى المعلى وقال : أحسنت وجزاك الله خيراً ، لقد عبرت عما فى نفسى ؛ نعم ، هى تشابه الموسيقى . قال الآخر هازئاً : نعماك يا صاحبى ، أراك تحسن

الفهم ، لقد أصبحت قعقعة أوانى النحاس عندك موسيقى جميلة تأنس لها . قال الخليل ، لا تهزأ يا هذا ، ما قلت إنها موسيقى جميلة ، إنما قلت إنها تشابه الموسيقى ؛ وحقاً ما الفرق بين هذه الآنية من النحاس يقرع عليها بالمطارق ، و بين الطبول والدفوف يقرع عليها بالعصى و بالأيدى ؟ كل الفرق هو أن هذه تحدث دوياً قوياً ، لا تقوى عليه الأذن ، وتلك تقع من الأذن موقعاً حسناً . قال أبو المعلى : هلم يا صاحبى نخرج من هنا قبل أن تصم آذاننا ، أو بالأحرى قبل أن تستوى عندك الأرض والسماء .

خرجا من سوق الصفارين ، والخليل يردد فى ذهنه فكرة التشابه بين طرق النحاس وقرع الطبول ؛ وما ذهبا بعيداً حتى دوى فى أذنهما صوت هو صوت سوق القصّارين . والقصارون أناس ينظفون الأثواب و يغسلونها، يستعملون لذلك أدوات تسمى الكُذِينَق ، وهى مطارق من الجلد ، يطرقون بها الثوب المغسول طرقاً مستمراً ؛ ومن الكذينق ما يحمل قطعة من الجلد ، يضرب به الثوب ؛ ومنه ما يحمل قطعتين ؛ ومنه ما يحمل ثلاث قطع حتى إذا ضربت بها الأثواب المغسولة ، أحدثت قرعاً مختلفة أوزانه وضرباته باختلاف عدد قطع الجلد .

سمع الخليل هذا الطرق ، فاتجه نحوه ، واضطر أبو المعلى إلى أن يتبعه على كره منه . ووقف الخليل يستمع إلى قرع الجلود على الأثواب ، وكأن هذه الجلود كانت تسر إليه بحديث لا يفهمه إلاه . والتجأ إلى حائط أسند إليه ظهره ، وأخرج لوحه ، وصار يكتب عليه خطوطاً غريبة ، ولم يعد ينتبه إلى أبى المعلى الذى وقف بقربه مشدوهاً ، وإلى المارين ينظرون إليه ، فيهز بعضهم منكبيهم سخرية منه ثم يسيرون ، ويقف بعضهم حوله يتأملون عمله ، ويضحكون منه ، وهو مأخوذ بسماع الدق ، يحرك فكيه ولسانه ، ويكتب على لوحه . وكان أبو المعلى يعرف فى صاحبه حبه بألا يقاطع حين ينطلق إلى التفكير أو العمل ؛ ولكنه هذه المرة فرغ صبره ، فقال له : لعلك تجد يا خليل مكاناً أليق من هذا بالبحث والتفكير ، لقد جمعت الناس حولك ، وأخشى أن يحضر الصبيان ، فيرموك بالحجارة ظناً منهم أنك معتوه يجوز لهم تعذيبه . قال الخليل : وقد انتبه من ذهوله ، وشاهد الناس حوله : لقد نبهتنى فى حين بلغت فيه نتيجة أراها حسنة ؛ فهلم بنا نبتعد عن هؤلاء الناس الذين لا يفرقون بين الجد والعبث . تعال معى إلى هذا المكان الضيق المنفرد ، واسمع

ضرب الكذينقات . قال أبو المعلى : أراك تهزل اليوم يا خليل ، بدأت بالنحاس ، وعطفت على الجلود ، ما شأنك بذلك ، وأنت النحوى اللغوى ؟ إذا لم تعجبك كلمة الكذينق ، فاختر لفظاً آخر ، وأشعه بين الناس ، فذلك اختصاصك ، ولكن بالله عليك لا تسمع هذا الصوت المنكر ، وتسمعنى إياه . قال الخليل : إنك يا هـذا تقطع علىّ تفكيرى بهذْرك ، فليس يهمنى اليوم كلمة الكذينق ، ولست أستمع إلى هـذا الصوت حباً به ، ولكنى أقصد أمراً آخر سوف تتبينه من سماع الكذينقات . اسمع هذه الدقات ، ألا تشابه دقات الصفارين ، ولكنها جامدة بسيطة لا رنة فيها ؟ أنظر إلى هذا القصار ، واسمع دقة كذينقه ذات الجلد الواحد . كان القصار الذى أشار إليه الخليل يقرع الثوب ، بجلد يحدث صوتاً شبيهاً بالصوت الذى يحصل من كلمة (تن) ولكن القصار كان كسولا أو ملولا ، فكان بين القرعة والقرعة فاصل من الزمن يطول أمده ؛ فكان يحدث صوتاً هو (تنــ تنــ تنــ) ولكن النون منه طويل . قال أبو المعلى : ما أطرب هذا الصوت ، وفشر معبد ، ومرحى لنا ؛ انتقلنا من البحث فى صوت الإنسان ولغته إلى البحث فى أصوات الجلود والنحاس

ماذا بعد هذا الصوت الشجى يا صاحبى ؟ قال الخليل : استمع إلى هذا القصار الذى يضرب بكذينق ذات جلدتين . ففتح أبو المعلى أذنيه ، وأضاف إلى صماخهما يديه ، فسمع صوتاً متكرراً (تتن تتن تتن) فقال مازحاً : أنى أفضل صوت القصار الكسول على هذا ، فهو أقل ضجة وأكثر رنيناً . قال الخليل : ولكنك تفضل سماع الاثنين معاً ، فانتظر قليلا حتى يختلط الصوتان . قال أبو المعلى ، وقد ازداد تأففه : لعلك تريد أن تصم أذنى ، فحسبى ما سمعت ، وقل لى الآن ماذا استنتجت من هـذه الأصوات المزعجة ؟ قال الخليل : لن يكون ذلك إلا بعد أن يزداد صبرك ، ويشتد اهتمامك ، وتصغى إلى تداخل الأصوات . قال : أمرى إلى الله ، إن الله مع الصابرين . وما انتهى إلى هذا القول حتى تداخل صوت قرع القصار الملول بالآخر فسمعا (تن تتن ، تن تتن ، تن تتن) ووقف القصار الملول قليلاً ثم عاد فسمعا (تتن تن ، تتن تن ، تتن تن) وتوقف القصار الآخر قليلاً ، ثم عاد متباطئاً ، فسمعا (تن تن تتن ، تن تن تتن ، تن تن تتن ، تن تن تتن) قال أبو المعلى : أحسبنى فى شهر رمضان ، وقد حضر المسحر ، يقرع على طبله ليفيق النائمين .

قال الخليل: نعم التشبيه هذا ، ها قد بدأت تفهم . إنك أذكى مما كنت أظن . قال أبو المعلى : لا تنخدع يا أخى ، فلم أفهم شيئاً ، ولا أخالنى أفهم أبداً . وما ذكائى بفهم هذه الأصوات إلا كذكاء الطفل بفهم حروف التشبيه وأسماء التفضيل . قال الخليل : عجباً لك ولأمثالك ! ترون الأشياء ولا تبصرونها ، وتسمعون الأصوات ولا تميزونها . وتحفظون المعانى ولا تدركونها ها أنت ذا شبهت هذه الأصوات بقرع الطبول فى ليالى رمضان ولو طلب إليك طالب أن تذكر له وجه التمييز بين قرعها فى تلك الليالى و بين قرعها على أبواب الأعراس لما عرفت. قال أبو المعلى: أنى لى أن أعرف ذلك ، وأنا لا علاقة لى بالموسيقى ، ولا شأن لى معها ، فاذا كنت قد وجدت شيئاً فاذكره حتى أتعلمه . قال الخليل : ستسمع ما يشابه قرع طبول الأعراس فتستنتج ما استنتجتُ ، فانتظر قليلا . فانتظر أبو المعلى صابراً راضياً ، وانتظر طويلا ، وإذا بقصار ثالث يبدأ قرعه بكذنيق ذات ثلاثة جلود ، فيختلط صوت قرعه بصوت قرع الاثنين الأولين فيخرج الصوت الآتى (تن تتن تن تتتن ، تن تتن تن تتتن) .

قال أبو المعلى: إن بين هذا الصوت وقرع الطبول ليلة الأعراس

بعض الشبه ، فقل لى الآن — قبل أن يفرغ صبرى — ماذا استنتجت من كل ذلك ؟

قال الخليل : الأمر على غاية من البساطة ، فهنالك ثلاث نقرات مختلفة . الأولى دقة وسكون (تن) الثانية دقتان وسكون (تتن) الثالثة ثلاث دقات وسكون (تتتن) هذه النقرات إذا تتابعت أو تداخلت كونت الموسيقى . واختلاف تداخلها وتتابعها هو الذى يولد اختلاف النغمات ، فالتمييز بين النغمات يكون بمعرفة وجه اجتماع النقرات بعضها مع بعض ، بل من الممكن حصر الوجوه التى تتداخل بها النقرات وإذا حُصرت حُصرت بها أنواع النغمات وسجلت وسميت ، وأصبحت الموسيقى علماً ، له تعاريفه وضوابطه .

كان أبو المعلى ينظر إلى الخليل ، وهو يشرح اكتشافه بحرارة و إيمان ، فيدخل كلامه فى أعماق نفسه ؛ و يشعر بصحته ، حتى إذا انتهى الخليل من شرحه ، نظر اليه نظراً طو يلاً سا كناً اجتمعت فيه عواطف نفسه ، فلم يتمالك أن تقدم إليه وقبله ؛ ثم لم يجد كلمة يعبر بها عن إعجابه ، فصار الدمع ينهمر من عينيه ، فعاد إلى صديقه يضمه إليه ليخفى تلك العاطفة التى جاشت فى

صدره وانتقلت إلى عينيه ؛ وأخذ يضرب بيده على ظهر الخليل ، ويقول بصوت خفيف متقطع . لله أنت : لله أنت !

أما الخليل فلم يكن يتوقع هذا النصر على معارضه الهازل الضاحك الذى انقلب إلى معجب يجيش بالدموع ، فأحس فى أعماق نفسه بنشوة من السرور كادت تسيل دموعه ، لولا أن ضبط نفسه ، وملك عواطفه ؛ وعاد إلى الحديث عن اكتشافه، فقال بمرارة : لا تظن أن الأمر بلغ حده يا صاحبى ، أو أنه شىء جديد لا يعرفه غيرى وغيرك ، والذى يخيل إلى أن الموسيقيين العارفين قد قطعوا هذا الشوط من النظر ، بل لعلهم يهزأون بى عندما أحدثهم عما وجدت ، وقد يقول قائلهم ساخراً : إن ما تذكر أبسط شىء فى فننا ، يتعلمه صغارنا ، ويترفع عن ذكره كبارنا . قال أبو المعلى ، وقد أخذ الجد يلازمة : لنذهب الساعة إلى أبى رافع ، فنتبين الأمر . فقال الخليل : ومن هذا أبو رافع؟ قال أبو المعلى . هو شيخ المغنين وأستاذهم ، يعلمهم الغناء وفنون الإيقاع على الآلات قال. الخليل : هلم بنا إليه ، فسارا إلى بيته ، ووجداه بين طائفة من أهل الغناء ، يتعلمون عنده ولما فرغ من درسه أقبل عليهما يسألهما عن حاجتهما ، فقال الخليل : أتيناك نسألك

عن وجه التمييز بين النغمات المختلفة ؟ فنظر إليه أبو رافع نظر المتعجب وقال : أنت تريد أن تتعلم التوقيع على العود ، أم الغناء أم العزف على الدف ؟ قال الخليل : ما أريد أن أتعلم شيئاً من هذا ، إنما قصدتك لأعرف قواعد علم الموسيقى . قال أبو رافع: ما أفهم ما تقول ، وأى شيء تكون قواعد الموسيقى ، هل ظننت الموسيقى نحواً له قواعده وأصوله ؟ أنت تقصد أمراً لا وجود له . فنظر أبو المعلى إلى الخليل نظر المبتهج . وأضاف أبو رافع يقول : بل هو أمر لا يمكن أن يكون . قال الخليل : إسمع ما أقول اذن، وأنبئنى بعدها برأيك . قال أبو رافع : لا تتعب نفسك بالمحال يا هذا ، ومن تكون أنت حتى تجد ما لا يمكن وجوده . قال أبو المعلى : ألا تعرف الخليل بن أحمد سيد النحاة واللغويين بالبصرة ؟ قال أبو رافع : بلغنى بعض الحديث عنه ؛ ولكنى أراه اليوم قد ضل سبيله ، فليرجع إلى نحوه ولغته . قال الخليل: دعنا من كل هذا يا شيخ واسمع ما أقول . ثم شرح له ما وجد فصار المغنى يهز رأسه ، ويرفع منكبيه ، ويحملق فيه ؛ ولما فرغ الخليل استوى أبو المعلى فى جلسته ، وانتظر امتداح المغنى لصاحبه وإعجابه وإطنابه وإذا هذا يقول : لعل فيما ذكرت شيئاً من

الصحة والاكتشاف ، ولكن ماذا يستفيد المغنون والعازفون من ذلك ، أتزداد يدهم مهارة فى التوقيع ، أم صوتهم جودة فى الغناء ؟ احتفظ بهذا لنفسك ، ولا تتعب فى إذاعته .

ما سمع أبو المعلى هذا القول حتى كاد يرتمى على رقبة أبى رافع فيدقها ، أو إلى وجهه فيوسعه لطما ، ولكنه نظر إلى الخليل فوجده يبتسم هزؤاً ، ويشير إليه بأن يقوم معه ، فخرجا .

قال أبو المعلى : لا تحزن ياصاحبى ، فهذا رجل لا عقل عنده ولا شعور ، وافرح بما أوتيت ، فقد اكتشفت ما لا يعرفه أصحاب الصنعة ، وهذا عطاء من الله لم يمنحه غيرك .

عاد الخليل إلى بيته ، وهو لا يدرى أمسرور هو أم حزين . لقد اكتشف سر الموسيقى وأصلها ، وليس من الصعب عليه أن يصنف فيها كتاباً يضبط أنواعها ، ويميز أصنافها . ولكنه حزين لأن اكتشافه لم يلق تشجيعاً من أصحاب الفن ، وهو إنما ينفع هؤلاء .

ما مضى عليه طويل زمن حتى أخرج كتاباً فى الموسيقى أسماه تراكيب الأصوات واتصل بالمغنين ، وصار يعلمهم أصول موسيقاهم وتفرعاتها ، ويهديهم سبيل إيجاد نغمات جديدة ، و يتعلم

منهم فنهم ، ويتتبع صناعتهم ، حتى لها بذلك عن النحو واللغة .
وكان يستصحب أبا المعلى إلى هذه المجالس ، فيضحك أبو المعلى ويصفق ويطرب . أما الخليل فكان يكثر التأمل ويردد اللحن وينشد الأناشيد ، ويقطّعها .

ومضى عليه زمان ، وهو يستصحب لوحه إلى مجالس المغنين فيرسم عليه رموزاً لا يفهمها أبو المعلى ، ويسأله عنها فلا يجيبه .
وتغير بعض الشيء طبعه ، فصارت تصدر عنه أصوات غريبة ، وأناشيد عجيبة ، يديرها على لسانه المرة بعد المرة ، فيفرح لها حيناً ، ويغتم لها تارة أخرى ، وأبو المعلى مستغرب طَلِعَة متشوق إلى معرفة أمره حتى كانت ليلة انطلق فيها المغنون إلى الشعر الجاهلي والأهازيج القديمة يغنونها طربين والخليل عاكف على لوحه ، يرسم عليه ، ثم ينطلق إلي الغناء معهم ، ثم التصفيق ثم الضرب بقدمه على الأرض ، ثم يعود إلى لوحه ، فيسوّده برموزه؛ وقد استوى أبو المعلى فى جلسته ، وصار يراقب حركاته.
فيزداد عجبه ، ويقول فى نفسه إن الرجل قد أصبح مغنياً ، بعد أن كان لغوياً ، وهاهو ذا الآن ينطلق فى هذا الفن، ولا بد أنه أخرج فيه جديداً وفيما هو يفكر هذا الفكر ، وجد الخليل يقف

ويصرخ قائلا : الله أكبر ! الله أكبر ! السكون فى الشعر هو كالسكون فى الموسيقى . ثم أقبل على أبى المعلى ، ومسكه من كتفيه وهزهما وقال : إسمع يا أبا المعلى ! السكون فى الشعر هو كالسكون فى الموسيقى. وكان المغنون قد بلغوا آخر نشيد لهم فصار الخليل يردد معهم وينشد ، ثم يعود إلى أبى المعلى فيقول السكون فى الشعر كالسكون فى الموسيقى ، فيضحك أبو المعلى كالأبله ، وينشد معه ، ولكنه لا يفقه ما يقول ، حتى أتم المغنون إنشادهم ؛ فقاد الخليل إلى مكان منعزل وقال : أفهمنى ما معنى قولك: «السكون فى الشعر كالسكون فى الموسيقى» قال: إن لهذا حديثاً طويلاً . قال أبو المعلى : حدثنى به ، فقد شوقتنى إلى معرفته .

قال الخليل : ألا تذكر ليلة من ليالى شتاء السنة الماضية حين اجتمعنا بطائفة من الأعاجم ، نتباحث أمر الشعر العربى وغيره من الأشعار ، فقال الأعاجم : إن الشعر العربى لا ضابط له ولا أصل ، مع أن شعر اللغات الأخرى بخلاف ذلك ، قد اتضحت أصوله ، وعرفت مقاييسه ، فلا سبيل إلى الخروج عليه . فرد عليه أحد الحاضرين من أبناء العرب قائلاً : إن

الشعر العربى أصله الطبع ، ومقياسه الأذن . فقال الأعجمى : ما قولك إذا فسد الطبع ، واختل مقياس الأذن ، ماذا يحصل بالشعر يومئذ ؟ فأجابه العربى بما لم يقنع المخالف .

قال أبو المعلى : أنا أذكر ذلك ، وأذكر أنك كنت صامتاً لا تتكلم . قال : نعم كنت أزن القولين ، فأجد الأعجمى مصيباً فيما يقول ، كنت أقيس أمر الشعر إلى أمر اللغة والنحو فأقول : سوف يكون من أمر الشعر العربى فى يد الأعاجم ما كان من اللغة العربية عندهم ، فقد أخطأوا فيها ولحنوا ، واضطربت على ألسنتهم ، حتى تصدى لها النحاة ، فوضعوا قواعد للأعاجم وضبطوا بها خطأهم . وهذا الشعر أصبح اليوم أداة يستعملونها ، فيخطئون فى أوزانه ، ويضطربون فى تعديله ؛ وما يدرينا لعل من العرب من يفسد طبعهم ، فلا يستطيعون التمييز بين شعر وشعر ، وقد يضيع عليهم الأمر فلا يهتدون إلى الحق . كذلك لبثت صامتاً . ومنذ يومئذ وأنا لا أفتأ أفكر فى هذا الأمر . ولما فتح الله علىّ بحصر أصول الأنغام والتواقيع ، شعرت بأن وضع مقاييس للشعر أصبح أمراً ممكناً . فالشعر ينشد مع الموسيقى ويرافقها ، فيجب أن يكون له مقاطع كمقاطعها ، لتتحد المقاطع

حين الإنشاد ، فتصح المرافقة ؛ و إذن فمن الممكن إيجاد مقاطع للشعر ، حتى إذا وجدت عُرفت المقاييس الشعرية ، ووضع ضابط الشعر . منذ ذلك الحين كنت تراني أسير إلى المغنين ، وأنشد معهم ، وأقابل تقاطيع الموسيقى بألفاظ الشعر ؛ بل كنت أذهب الحين بعد الحين إلى سوق القصارين ، وأزن نقراتهم ببعض الأناشيد ، وأنشد الشعر على تلك النقرات . وكان أعظم شيء يلفت نظرى هو نهاية المقطع الموسيقى ، أى السكون ، وهو ما يقابل النون فى (تن) و (تتن) و (تتتن) حتى تجلى لى هذه الليلة أن ما يقابل ذلك أحد شيئين فى الشعر ، إما الحرف الساكن ، و إما حرف المد . وحرف المد فى النحو — كما تعرف — يستبدل بالحرف الساكن ، والحرف الساكن به ، فهما سواء . فالسكون فى الشعر هو السكون فى الموسيقى . والشعر كالموسيقى حركة وسكون ، وبالحرف المحرك والحرف الساكن ينتظم وزن الشعر و يضبط . ولم يعد لدى الآن إلا أن أرجع إلى أشعار العرب ، فأقطعها معتبراً الحرف الساكن آخر المقطع ، وأماثل بين المقاطع ، فيكون من نتيجة ذلك ضابط للشعر العربى . قال الخليل ذلك ، وأمعن النظر فى أبى المعلى ليرى أثر هذا الكلام فيه ، فوجده

سا كنناً صامتاً . فقال له : مالك لا تنبس ببنت شفة ؟ قال : إن ما تذكره بعيد عن فهمي ، عظيم على ذكائي ، ولا أدري ما تقول ؛ على أني واثق من أنك وجدت أمراً لو نجح لأتيت بما يفوق قواعد النحو وأصول اللغة . فهل أنت على ثقة من حسن النتيجة ؟ قال الخليل : الحق إني كمن وجد مفتاح دار لا يعرف ما فيها ، وقد يجد فيها ما يطلبه . وقد لا يجد ؛ وقلبي يحدثني بأن فيها ما أطلب .

انكب الخليل على عد مقاطع الشعر وحصرها ، وهو أمر صعب مشتت طويل ، ولكنه لم يكن على ذكائه بعسير . وجده بعد إعمال الفكر ، فتم له كشف ميزان الشعر .

الفصل العاشر

ماذا حدث بعد ذلك . ياللمصيبة ! هذا عبد الرحمن ابنه يخرج من الدار ، وهو يلطم خديه ، ويركض على غير هدى ، ويصيح بكلام غير مفهوم، فيستوقفه الجيران ، ويهدئون روعه، ويسألونه عما به . فيقول وهو يبكى ، ويجهش بالبكاء : جن أبى ، جن أبى . ثم يعود إلى بكاء أمر يفتت الأكباد : لقد جن أبى ، قد ضاع عقله . يا للهول يا للمصيبة ! ويصرخ أحد الجيران: وا أسفاه عليك ياخليل . إن كثرة الذكاء تقرب المرء من خلل العقل ؛ ماذا تنفعك اليوم تلك النباهة وذلك الذهن الوقاد ؟ ويصيح الغلام : وا أبتاه ! وامصيبتاه ! . وتتفطر نفوس الحاضرين أسى وحزناً . ويقول بعضهم : كفى بنا اضطراباً، هلموا ننظر فى الوجه الذى نسعفه به . هلموا ادخلوا الدار . ويدخلون الدار ، فلا يرون من الخليل إلا قامته ؛ أما رأسه فقد أخفاه فى فوهة بئر عنده . ويسمعونه يصرخ أقوالاً لا معنى لها ، وهو يكررها ، ويقتربون

منه فيرون رأسه وقد تدلى فى البئر منفوش الشعره . ولا يحس الخليل بوجودهم بالرغم من ضجتهم وكثرتهم . فيتقدم إليه أحدهم ويقول : يا أبا عبد الرحمن إصح إلى نفسك ، وأخرج رأسك من البئر ، فليس ذلك بنافعك شيئاً . فيرفع الخليل رأسه ، وينظر إليهم نظرة المتعجب المحتار . ثم يقول وقد ساءه التفافهم حوله وتكاثرهم عليه : « ما لكم يا هؤلاء ، وأى خطب جلل جمعكم ؟ » فيقولون : هدىء بالك يا أبا عبد الرحمن ، ولا تسوءك رؤيتنا . فيهدئ نفسه ، ويقول بلطف : هل دهاكم أمر أستطيع دفعه عنكم . فيقولون : لا ! لكننا نريدك على أن تهدئ أعصابك ، وتريح نفسك . فيقول : ولكنى بأهدأ حال وأحسن راحة ؛ فأخبرونى بأمركم ، فيتشجع أحدهم ويقول : إن ابنك ظن أنك جننت ، فخرج يصيح ويستغيث ، فجئنا لنطمئن عليك . فيعض الخليل على نواجذه ، ويحار كيف يفسر لهم الأمر . ثم يعول أن يكشف اختراعه ، فقد آل إلى نتيجته التامة التى كان يتوقعها . فيقول ببساطة مزجت بشىء من البهجة : كثيراً ما خشيت على الشعر العربى ، فقد وجدت الأعاجم يقدحون عليه ، ورأيت من الشعراء المولدين من يدعو إلى الخروج على

منهاجه ، فعرفت أنهم سينتهون إلى وزنه فينتقدونه ، ويطلبون تعديله ، ويدعون أنه لا يقوم على أصل ، ولا يرجع إلى ميزان ، وقد يقولون إنه رغبة قوم بدو لا أذن موسيقية لهم . خشيت ذلك ، وكنت مؤمناً بأن الشعر العربي كالنحو ، له قواعده وضوابطه ، بل لعـله أقوى في ذلك من النحو . فصرت أعمل الفكر لإيجادها ، وعكفت على ذلك حيناً طويلا حتى وفقني الله وما كنت عليه الساعة هو اختبار صحتها ، كنت أقابل قواعدي على مقاطع الشعر ومقاطع الشعر تظهر واضحة في الصدى الذي تحدثه البئر . يقول ذلك ويحيلهم إلى يوم معهود ، يكشف فيه عن تلك الأصول بالمسجد الجامع بملأ من الناس ، فيعجب الجيران ويسر ذوو العلم منهم . وينظر الخليل إلى ابنه نظر الآسف الحزين ، يأسف على أنه مني بولد لا عقل له ولا فهم عنده ، ويحزن على ذلك الولد الذي أضاع خير ما في الحياة بضياع عقله ، ثم يقول بلهجة الحزين الآسف يخاطبه :

لو كنتَ تعلم ما أقول عذرتني　　　أو كنت تعلم ما تقول عذلتُكا
لكن جهلتَ مقالتي فعذلتني　　　وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

هرع العالمون والمتعلمون إلى المسجد الجامع لسماع شرح ذلك

العلم الجديد الذى أبدعته قريحة الخليل ، وكانوا بين مصدق ومرتاب . أيقنوا أن الخليل لايدعى هراء ، فليس أصدق منه بالبصرة ، ولم يعهد عليه الكذب قط . وعجبوا من الشعر العربى يضبط بعلم وقواعد ، فمتى كان الشعر ـ وهو يخرج من الشعور ، ويمت إلى الذوق ـ ينطوى على ميزان واضح وأصول ثابتة ، وظن أكثرهم أن الخليل واهم ، وأنهم سوف ينقضون أقواله ويفلّون حججه . ولما التأم المجلس افتتحه الخليل باسم الله ، ثم صار يحمد الله على أن وفقه بهذا العلم الجديد الذى دعاه بالعروض ، لأنه يُعرض الشعر عليه ، فإن كان صحيحاً تبينت صحته وإن كان مكسوراً ظهرت علته . ثم قال :

لقد كشفت عن سر الشعر العربى وضبطه ، فلن يقع فيه خلل بعد اليوم ، وهؤلاء المولدون الذين أطلقوا أنفسهم لقول الشعر ، وليس عندهم من الطبع العربى والأذن العربية مايخولهم الصحة ، لن يستطيعوا بعد اليوم أن ينقضوا ميزان الشعر العربى ، وأن يدعوا أنه ليس له ضابط ، وأن من حقهم ألا يتقيدوا بأقوال رواة الشعر وحفاظه ، أولئك الذين ينسبونهم إلى الخروج عن ميزان الشعر ، دون أن يفسروا لهم سبب خروجهم . أيها

الناس ! لن يستطيع إنسان بعد اليوم أن يقول غير الشعر فيدعى أنه شعر ، لأن سبيل اقناعه بخطئه أصبح بسيطاً غاية البساطة . أيها الناس ! لقد برهنت أن العرب الذين ينسب الشعوبيون إليهم الجهل والخلل يتكلمون عن سجية لها أصولها المضبوطة ، لا يخرجون عنها ولا يحيدون . ألا أيها العرب اعتزوا بشعركم ، وفاخروا الأمم بموسيقاه وحسن ضبطه .

قال ذلك وأخذ يشرح مادته بأسلوب سهل وطريقة واضحة . وكان يعرف أن المجتمعين لن يفهموا من شرحه إلا قليلا ، فكان لا يطيل عليهم وكان يؤكد لهم أن تفريعاته وضبطه تسرى على كل الشعر العربي جاهليه وإسلاميه ، والناس ينظرون إليه مفتونين محتارين . إنه كلام حسن صحيح ، ولكن الدعوى كبيرة . وما كاد أبو عبد الرحمن ينتهى من شرحه ، حتى قام من الحاضرين رجل فقال : إن كان كلامك حقاً ضبطت لنا بميزانك معلقة امرىء القيس ، فبادر الخليل إلى وزنها و إخراجها وضبطها ، فصاح الحاضرون : الله أكبر . وأسرع أحدهم فأعطاه بيتاً من الشعر يطلب حصره ، فحصره له الخليل ، ثم انهالت عليه الأشعار وهو يحصرها . وتكاثر الناس وتوسعت

الحلقة ، وكانت صيحات الاعجاب تتعالى ، ولا يتمالك المجتمعون من تكبير الله على ما رزق البصرة من هذا العلم العجيب بهذا الرجل الفريد . وبعد اختبار واسع لهذا العلم ، انفضت الحلقة ، والتف الناس حول الخليل يهنئونه بعلمه وإبداعه . وخرج عالمان من الجامع ، وهما يتحدثان بهذا الاختراع . قال أحدهما : « هل صدقت ما سمعت أذناك ، ووعت عيناك ؟ » فأجاب : « إنى من أمرى لفي عجب وحيرة . الحق أن ما أتانا به أبو عبد الرحمن توفيق من الله عز وجل ما بعده توفيق . إنى رأيت المتكلمين حين يضعون قياساً ما ، يطيرون فرحاً به ، ويصفونه بالتوفيق والالهام ، ووجدت النحاة إذا اكتشفوا قاعدة نحوية ، ظنوا أنهم بلغوا ذروة العلم ، فصفقوا وطربوا ، وألفيت أصحاب الرأى والفقه ، إن صدق قياسهم ، شادوا به وأذاعوه وصفقوا له ، وشاهدت أصحاب كل علم يسعون وراء اكتشاف بسيط يفتخرون به . أما صاحبنا أبو عبد الرحمن ، فهو يضع علماً كاملاً مستوفياً ، ثم يقف بين الناس على غاية من التواضع ، فيشرح لهم علمه ، فلا تخرج منه كلمة فخر أو أعجاب ؛ وكأنه يشرح أقوال غيره ، حتى إذا اعترض معترض ، لم تأخذه الحمية ، ولم يلهبه التحمس ، بل

أجاب ببساطة ودعة ، فمنع الاعتراض . يا أخى إن هذا الرجل فوق الرجال ، ولم ير الراءون مثله » . قال الآخر : « إنى بحثت قبل موعدنا اليوم فى أقوال الاخباريين والرواة عما يصح أن يتخذ مشرعا يشرع منه الخليل ، فوجدتهم يذكرون بعض صفات القافية ، ويسمون نوعاً أو نوعين من البحور ، دون أن يذكروا شيئاً عن أوزانهما . وذلك كل ما قالوا عن ضوابط الشعر ، وإذا بالخليل يبدع مادة واسعة متسقة ناضجة كاملة لعلم يرفع به العرب رؤوسهم. لقد سمعت بعلم ليونان يدعونه بالمنطق ، يعرفون به صحيح الكلام من باطله ، وقوى الرأى من ضعيفه . وضع هـذا العلم أرسطاطاليس ، وتوالى تلاميذه على تكميله وتوسيعه . غير أن صاحب العقل السليم يدرك ضوابط هذا العلم من نفســه ، ويعرفها بالقريحة ، ويقر بها دون جدل . وأرى صاحبنا أبا عبد الرحمن قد فاق أصحاب المنطق وبذهم ، فلم يكن العقل يهدى إلى خطأ الشعر ، ولم يكن أحد يستطيع البرهان على صحة وزن بيت أو خلاف صحته . يجتمع الرواة فيقولون إنه صحيح ، فلا نستطيع أن نفهم منهم لماذا ، ويأتى الخليل ، فيضع لك قواعد تامة يجريها أمامك ، فتقنع بها عقلا وتذوقاً . ألا إن

الخليل وحيد الدهر وغاية العلماء » قال الآخر : « حكى لى رجل تزوج إلى جيران الخليل ، فأقام عندهم ، قال : سمعت الخليل يقرأ القرآن شطراً كبيراً من الليل ، فسألت عن ذلك أهل زوجتى ، فقالوا ما عرفناه إلا كذلك ، و إنه ليغيب فى حج أو غزو فنستوحش له . كذا ذكر لى ، و إنى لأرى أن الله أنعم عليه من العقل والتقى والصدق مالم ينعم به على أحد ، اللهم إلا على أنبيائه المخلصين .

أتت الأيام التالية ، والطلبات تنهال على الخليل فى تعليم علم العروض . ولم يمتنع الخليل عن الإجابة . وقف نفسه حيناً طويلا من الدهر على تعليم علمه و إفهامه للناس . وكان ممن تردد إليه ، يتلقى العروض الأصمعى الراوية المشهور ، فشرع الخليل يشرحه له ، والأصمعى لا يفهم ما يقول . وأعاد الخليل الكرة ، فامتنع الفهم أيضاً على الأصمعى، فلم ييأس الخليل ، وعاوده فى الأيام التالية ، ولكن الفهم استعصى عليه ، حتى يئس الخليل ، وتأذى بتعبه الذى يلقاه من التعليم ، دون أن يكافأ بفهم الطالب ، وكان يعز عليه أن يبعده عنه ، ويقطع تلقينه إياه بقول لعل الأصمعى يتألم منه . ولا ريب أن غير الخليل كان يصعب عليه

إيجاد وجه أديب فى التوقف عن التلقين ، أما هذا العبقرى فما أسهل ما يجد طريقه إلى ذلك : قال له : يا أبا سعيد ! كيف تقطع قول الشاعر :

اذا لم تستطع شيئاً فدعه   وجاوزه إلى ما تستطيع

فأنشأ الأصمعى يقطع هذا البيت دون جدوى ، حتى إذا أتى به الخليل على آخره ، استأذن وخرج ، ولم يعد بعدها إلى العروض . ما ألطف هذه الإشارة وأرقها ، وما أسرع فهم الأصمعى بالإشارات وأثقله بالعروض .

لم يقف الخليل عند اختراع هذا الفن ، بل بادر إلى جعله سبيلا لإبداع أنواع من البحور والشعر لم يعهدها العرب . لقد امتلك مفتاح الشعر العربى بعروضه ، فصار حرياً به أن يفتتح به آفاقاً من الشعر مجهولة . استخدم العرب من التفاعيل الثمان خمسة عشر بحراً ، مع أنها تعطى أكثر من ذلك بكثير حين تجمع وتركب . وكذلك صار الخليل يركب منها بحوراً جديدة ، ويخرج بها شعراً من وزن جديد . أخرج قصيدة على فَعِلُنْ أربع مرات ، فقال :

سئلوا فأبوا فلقد بخلوا   فلبئس لعمرك ما فعلوا

أبكيت على طلل طرباً	فشجاك وأحزنك الطلل

وعمل قصيدة على فَعْلُنْ أربع مرات فقال :

هذا عمــرو يستعفى من	زيد عند الفضل القاضى

فانهوا عمراً إنى أخشى	صول الليث العادى الماضى

ليس المرؤ الجانى أنفاً	مثل المرء الضيم الراضى

فاستخرج المحدثون من هذين البيتين وزناً سموه المخلع ، وخلطوا فيه من أجزاء هــذه وأجزاء هذه وما أحدث الاندلسيون من الوشحات ، وما يحدث فى المستقبل من أوزان جديدة ، تلائم روح العصر ، وتدرج مع موسيقى الجيل ، يرجع فضله إلى الخليل ، فقد اكتشف مفاتيح الشعر ، وأطلق للشعراء استخدامها بما يقتضيه ذوقهم وتخرجه قريحتهم . والعروض فى ذلك كالنحو ، ألا ترى أن علم النحو والصرف أخرج كلمات وألفاظاً وجموعا لم تنقل عن العرب ، ولم تسمع منهم ، كذلك العروض أخرج وسيخرج أوزاناً تتفق مع الذوق العربى ، وتجرى على أصوله ، وتنبثق من تفاعيله .

الفصل الحادى عشر

هذا الرجل كان يقاسى مضضاً شديداً ، وضيقاً قوياً . خاف أبوه عليه بستاناً ، فصار يعيش بغلته ؛ ولكنه كان كريماً ، فسرعان ما تتبدد الغلة ، ويضرب الفقر غائلته ، فتصيح زوجه طالبة الإنفاق عليها ؛ ويصيح ابنه متوجعاً ؛ وكانت الزوج والولد يحمّلان الأب مالا طاقة له به من الاعنات والإرهاق ؛ وهو صبور حمول ، حتى كان يغلق عليه بابه ، ولا يستقبل أحداً خشية إطلاع الناس على همومه ؛ وقد ذكر ذلك لتلميذه النضر بن شميل فقال : إنى لأغلق علىّ بابى ، فما يجاوزه همى .

وأصبحت البصرة ذات يوم ، وإذا بخيول مطهمة تجتاز شوارع البلدة ، فخمة تلفت النظر ، وعليها فرسان أنيقون ، يرتدون ألبسة فارسية زاهية . ويتسارع الناس إلى رؤيتهم ، ويتساءلون عن أمرهم ، فيقول قائلهم : « إنهم من الأهواز وأيم الله ، فقد

رأيت أصحاب الأميرهناك ،وهم يرتدون هذا الضرب من اللباس . ولا جرم أنهم أتوا يحملون هدية إلى أميرنا » .

وتسير الفرسان وراء دليل يشق الطريق أمامهم ، ولا يلبثون أن ينحرفوا عن قصر الأمير ، ويتجهوا وجهة أخرى ، حتى يدخلوا حى الخليل بن أحمد ، ويقتربوا من بيته . فينزل الدليل مسرعاً ، ويبادر إلى باب الخليل ، يطرقه طرقاً مستعجلاً ، يشير به إلى عظم ما أتي به . فيخرج ابن الخليل عبد الرحمن ، ويتأمل الدليل والفرسان والخيول ، فيصيبه الوجوم ؛ فهو لم يكن يرى بين زائرى والده إلا متعممين ومتطيلسين . ويعجل الدليل، فيقول له : « هيا أخبر والدك أن أمير الأهواز بعث إليه رسولاً من كبار أصحابه » . فيدخل عبد الرحمن على والده ، وكان يلقى درساً على طلابه ، ويقول له مسروراً مستعجلاً مرتبكاً : « قم يا أبتى ، فقد أتانا الخير ، وذهب الفقر . هذا رسول أمير فارس يأتى بأبهة عظيمة إليك موفداً . وقد رأيت من خيوله وتابعيه ما لم تر عينى قبل اليوم » . قال الفتى ذلك متوقعاً لقوله أثراً عظيماً عند والده . غير أن هذا لم يبد كبير اهتمام ، ولم ينهض ، بل قال : « دعه يا بنى يدخل إلينا » ؛ فنظر عبد الرحمن إلى

والده بدهشة عظيمة وخيبة أكبر؛ ثم لم ير بداً من تنفيذ أمر والده، فخرج يقول للدليل ومن معه: أهلاً بكم، أدخلوا بترحاب؛ فينزل الرسول متثاقلاً، وقد خاب ظنه بحسن اللقاء ومزيد الحفاوة، ويدخل داراً بسيطة متواضعة، فيزداد عجباً؛ وقد كان يعتقد أن من أرسل إليه رئيس من رؤساء المدينة كبير. وينتهي إلى مجلس الخليل، فيتلقاه هذا بالبشاشة والترحاب، ويدعوه إلى الجلوس وأصحابه؛ ثم يعود إلى درسه ليتمه، فيرى له الرسول من هيبة العلم ووقار المجلس ما يدفعه إلى أن يطرق الرأس باحترام، حتى ينتهي الدرس.

أما عبد الرحمن، فيقف إلى الباب، وقد شده بصره، وهو يتنقل بين ملابس الفرسان المزركشة وسيوفهم اللامعة؛ ولا يمتد نظره بعيداً، حتى يرى أحد الفرسان، وقد ألقى بين يديه بصندوق مرصع، فيتساءل عما في هذا الصندوق، وينطلق به الفكر إلى سوق البزازين حيث رأى لباساً شدّ ما أطال النظر إليه، وتمنى أن يكون لوالده من المال ما يسعف بشراء ذلك الثوب.

يفرغ الخليل من الدرس، فيلتفت مرحباً بضيفه مرة أخرى،

يؤانسه و يسأله عن حال صاحبه ، فيقول الرسول : «إن مولاى الأمير سليمان بن حبيب المهلبي — أعزه الله — الذى تجمعك بالقرابة به قبيلة بنى أزد ، قد أقر على فارس والأهواز ؛ تلك الأصقاع الـكبيرة ذات الخيرات العظيمة التى فيها كانت خزانة كسرى وعاصمة ملكه ؛ وقد أقام مولاى الأمير فى قصر عظيم فخم ، وحفت به الأمراء والقواد والفرسان ؛ واجتمع إليه العلماء ، وجلس على بابه الشعراء . وقد بحث عن أديب يلازم مجلسه و ينادمه ، و يؤدب أولاده و يعلمهم ، فلم ير أليق بذلك منك . وقد أرسلنى لأحملك إليه مكرماً معززاً ؛ ولم ير مولاى الأمير — أعزه الله — أن يوفدنى وهؤلاء الفرسان دون هدية ؛ فأنعامه غزيرة ، وخيراته عميمة ؛ ويلتفت إلى الفارس الموكل بالصندوق ويقول : اقترب بما معك ، فيرفع هذا صندوقه ، و يضعه أمام الخليل و يفتحه ، فيقول الرسول : هذه مائة ألف درهم ، أرسلها إليك مولاى الأمير على سبيل الهدية المستحبة ، وقليلها كاف لتجهيزك إلى حضرته على خير مثال » .

نظر عبد الرحمن إلى الدراهم ، وهى بيضاء ناصعة تلمع أمامه ، فسال لعابه ، وانفجرت عيناه ؛ و بهر بها تلامذة الخليل ،

وعلت بعضهم ابتسامة الفرح بما الخليل حرى بأن يرببهم منها ، وهو الذى يشاطرهم ماله مهما قل .

أما الخليل فينهض متئداً ، ويذهب إلى خزانة فى البيت ، ويخرج منها شيئاً صغيراً يحمله فى يده ، ويعود به إلى مجلسه ، ولا يستوى قاعداً حتى يقول: «أرأيت هذه الكسرة من الخبز ، إنها زادى الوحيد ، ولكنها كافية لسد رمقى ، وما دام عندى منها ، فلست بحاجة إلى سليمان . أما هذه الدراهم الكثيرة ، فعند الأمير من الشعراء من هم بحاجة إليها ، فليردها عليهم » . ما سمع عبد الرحمن ذلك ، حتى اضطرب واكفهر ؛ وأراد أن يتكلم ، ولكن الكلام وقف فى حلقه ، فصار يتأتى بما لا يفهم. أما الرسول فما صدق ما سمع ، وعاد إلى الخليل يستفهم منه ، فقال له : لقد كفانى الله بهذا الخبز عن الرحلة إلى أميرك ، وهذا جوابى . وكان ذلك كلاماً لا التباس فيه . فاحمر وجه الرسول ، وأدرك أنه أخفق فى مهمته إخفاقاً مريعاً ما كان يتوقعه ، فحاول أن يقنع الخليل ، فصار يصف له قصور فارس وجمال بنيانها وحسن طبيعتها وكثرة خيراتها ولطف الأمير وظرف حاشيته ، دون أن يثنى الخليل عن عزمه ، حتى عرف الرسول

أن لا أمل بإقناعه، فأمر الفارس الموكل بالمال أن يرفعه ؛ فأغلق هذا الصندوق ، وانقطعت الفضة عن اللمعان ، فكادت عين عبد الرحمن تخرج من صدغيه معها . وحُمل المال وأخرج من البيت ، والخليل لا يعير ذلك التفاتاً . ثم إن الرسول تقدم إليه ، وقال له : بماذا أجيب مولاى الأمير ، وماذا أقول له نقلاً عن لسانك ؛ فقال :

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة وفى غنى غير أنى لست ذا مال
سخّا بنفسى أنى لا أرى أحداً يموت هزلاً ولا يبقى على حال
الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه ولا يزيدك فيه حول محتال

هذا ما تنقله إليه بالحرف الواحد . فاستأذن الرسول ، وهو يتعثر بخيبة أمله ، وخرج يقول : ما هذا إنسان كما رأيت .

نظر طلاب الخليل إلى أستاذهم نظرة حيرة ، فيها العجب والإجلال والأسف والحسرة . إن شيخهم لأعظم الناس وأحراهم بالإجلال ، وما فعل أمامهم أكبر من أن يصدق . وأطرقوا الرأس بين يديه ، وانتظروا أن يأذن لهم بالخروج ليذهبوا ، فيتحدثوا بالبصرة عن أعجب ما رأوا وسمعوا ، وعن أجل الناس وأرفعهم .

أما عبد الرحمن ، فانطلق إلى أمه يخبرها بما وقع ، وهو لا يستطيع كتمان بكائه . فما سمعت كلامه ، حتى أقبلت على زوجها مكفهرة الوجه مشجبة الأعصاب ، وقالت ، والكلام يتعلثم فى فيها : ماذا أصابك يا صاحبى ، حتى رفضت مالاً أتاك يسعى إليك . أجننت أم صرت تفضل الموت على الحياة . أنسيت أنك أب وزوج ، وأننا لا نجد من الطعام إلا ما لا يسد حاجة . أنسيت ثيابك المرقعة التى تصغر بها منزلتك فى أعين الناس . هذا ولدك يبكى كل يوم على كسوة يطلبها ونعل يبغيه ، وأنت تعد وتؤجل ، وتنتظر الفرج وتؤمل ، حتى إذا جاءك الفرج ، ضربته برجلك ، ودفعته بيدك . ثم طفقت تبكى وتشهق ، وجلس ابنها إلى جانبها يعلو عويله عويلها . ونظر الخليل إليهما نظر المشفق الحزين ، فسالت دمعة من عينه أسفاً على نفسه منهما ، وعليهما من عدم فهمهما لقصده .

وخرج إلى شأنه ، وما ذهب بعيداً حتى ألفى صديقه أبا المعلى ، فحياه تحية من يريد أن ينسى ما حدث . ومشى معه إلى حيث يجلسان عند قصر أويس ، ينعمان النظر بجمال الطبيعة وما استقر بهما المجلس ، حتى قال أبو المعلى : لقد دوت البلدة

بخبر الرسول الذى أتاك من عاهل الأهواز ليحملك إلى فارس ، ومعه مائة ألف درهم . وقد ذكر الناس بالدهشة ردك الدراهم ورفضك الرحلة ، فهل صحيح ما يدعون ؟ قال : نعم ، كان ذلك. فقال أبو المعلى : فعلت ذلك يا أبا عبد الرحمن ، وأنت أحوج الناس إلى المال ، وأحقهم به ؛ فما معنى فعلك ، وهل يأمرك زهدك أن تدع أهلك يرتعون فى الفقر ؟ قال الخليل : « كفاك يا أبا المعلى . هذا كلام من لا يفقه ما يقول . أتعذلنى على أنى رفضت مالاً لم أفعل شيئاً أستحقه به ، أو تلومنى لأنى أربأ بنفسى أن أكون عبداً لأمير ، يظن العظمة فى الحكم والعز للمال والقوة لصاحب الجند . أترانى عائشاً فى القصور ، منقطعاً إلى تعليم غلام أو غلامين للأمير ، رهن الإشارة ، عبد الأمر . أترى هذا العلم الذى أحمله يصير ملكاً لأمير ، يأخذ منه ما يشاء ويدفع منه ما يريد ، يجعله سبيلاً إلى التفكه ، وواسطة للتسلية يحصره لديه ، ويضن به على غيره . يا صاحبى ! لست أزهد فى المال لأنى أكره النعمة ، ولكنى أريده خالصاً من العبودية ، صافياً من دنس التحكم ، حقاً لا مماراة فيه ، وأجراً لا بد منه . ياصاحبى ! لن أبيع علمى وعزتى وعقلى بالمال مهما كثر ، وان

أ كون عبداً إلا لخالقى» . قال أبو المعلى : «يدهشنى أن يكون فى الناس من ينظر إلى الحياة نظرتك » . قال : بل أحق بك أن تعجب من أنهم لا يسيرون فى الدنيا سيرتى . قال أبوالمعلى : إن الذى يؤسفنى أنك قلت شعراً للأمير تقطع فيه عليه سبل استمراره على إرسال الراتب الذى خصك به منذ زمان مكافأة لك على علمك . قال : إنه إن منعه لم يمنع عزيزاً .

مضت الأيام ، والخليل يزداد فقراً إلى فقر ، حتى أتى الحين الذى يصل فيه راتب سليمان ، فبُلِّغ الخليل أن الأمير ساءه جوابه ، فأمر بقطع الراتب عنه وسار الخبر فى المدينة ، فصار الناس يستفسرون من الخليل عن جلية الأمر ، فيخبرهم بحقيقة ما حصل ، وينشد لهم شعراً يخاطب به سليمان قائلاً :

إن الذى شق فمى ضامن ... لى الرزق حتى يتوفانى
حرمتنى مالاً قليلاً فما ... زادك فى مالك حرمانى

وسارت الرواة تحمل هذا الشعر وتنشده ، حتى بلغ الأهواز ، وطرق سمع الأمير ، فأقامه وأقعده ، وخاف على شهرته من رجل يحترمه الناس ويبجلونه . ويرفعون قدره ويصدقونه ، فكتب إليه يعتذر ، وأمر بأن يضعف راتبه ؛ فلم يزد الخليل هذا العمل

احتراماً لسليمان ، وعرف قصده فقال :

وزلة يُكثر الشيطان إن ذكرت
منها التعجب جاءت من سليمانا
لا تعجبن لخير زل عن يده
فالكوكب النحس يسقى الأرض أحيانا

فوبخه أبو المعلى على قوله هذا ، وقال له : لقد استغفر سليمان لذنبه ، فما بالك تقسو عليه . فقال يعنى نفسه :

صلبُ الهجاء على امرىء من قومنا
إذ حار عن سنن السبيل وحادا
أعطى قليلاً ثم أقلع نادماً
ولربما غلط البخيـــــــل فجادا

فقال أبو المعلى : وإن تعف وتصفح هو أقرب للتقوى . قال الخليل نعم القول الذى تعظنى به ، وسكت عنه .

الفصل الثانى عشر

سما مقام الخليل بين الناس فى البصرة وغير البصرة ؛ وصار الناس يقصدونه من القريب والبعيد ، يستفيدون من علمه ، ويخبرون ذكاءه ؛ وهو لا يمتنع على إنسان ، بل يبش فى كل الوجوه ، ويتواضع مع الكبير والصغير . وكان أهل البصرة يتخذونه صاحباً وأباً وراشداً ودليلاً ، وكان هو يهتم لهمهم ويفرح لفرحهم.

حدث أن مات كحال كان يعمل للناس دواء ينفعهم لغشاوة البصر ، وتضرر الذين كانوا يستعملون هذا الدواء ، وصاروا يطلبونه ، فلا يعرفون له اسماً ، ولا يدرون تركيبه . ولما كثر تشكيهم من ذلك ، اجتمعوا يتداولون أمرهم ، فقال قائل منهم : لم يعد لنا إلا أن نلجأ إلى أبى عبد الرحمن الخليل ، فهو بذكائه وعلمه قد يجد لنا هذا الدواء ، مهما كانت أخلاطه كثيرة فهلموا بنا إليه لنقص عليه قصتنا. وأجمعوا أمرهم ، وذهبوا إليه ،

فشكوا ما يجدون ، فساءه حالهم ، ولم يكن كحالاً ليصف لهم دواء غيره ، فماذا يفعل ؟ قال: هل كان للدواء نسخة ذُكر بها أخلاطه ؟ قالوا : لا . إنما كان يحضره لنا بنفسه . قال : وهل تعرفون الآنية التى كان يجمع فيها الأخلاط ؟ قالوا : نعم ، وأحضروها له . قال راوى القصة محمد بن الفضل — وهو من أعيان الناس — : جعل الخليل يشم الإناء ويخرج نوعاً نوعاً ، حتى عرف خمسة عشر نوعاً . وسواء أصدقنا أنه وجد هذه الأنواع بهذا الأسلوب أم لم نصدق ، فقد وجدها بهذا أو بغيره ، مما يكفله ذكاؤه وجده ؛ ثم سأل العطارين أن يصنعوا دواء يجمع هذه الأخلاط فصنعوه . فإذا هو الدواء المطلوب ، فسر المحتاجون إليه ، وصاروا ينتفعون به كما كانوا يفعلون قبل وفاة الرجل . ثم وجدت نسخة فى طيات كتاب من كتبه ، ووجد فيها ستة عشر خليطاً ، ووجد أن الخليل أغفل منها خليطاً واحداً .

استعظم الناس هذا الأمر ، وتحدثوا به زمناً طويلاً ، وسارت الركبان بأخباره ، ولعلهم زادوا فيه شيئاً أو أشياء . وصار

الرجل يشار إليه بالبنان فى كل حضر أو سفر ، فيقال : هذا الخليل ، أذكى الناس وأصفاهم ذهناً وأحسنهم قريحة .

أما هو فكان يعانى من ولده الأمرين ؛ كان ولده أحمق متخلفاً لا يفهم ، وعنيداً لا يستكين .

جاء شاعر يزور الخليل وجلس عنده ، وكان عبد الرحمن حاضراً ، وعرضت حاجة للخليل فقال لابنه : قم وأحضرها . فقال ابنه : لا أقوم . فقال : إذا لم تقم فاقعد . قال : لا أقعد . قال : فأى شىء تصنع ؟ قال فأى شىء أصنع . وضحك الشاعر ، وقال : إن لك أن تتعزى فابنك ليس وحيداً فى ذلك . إن لى مرأة تشابهه ، وقد قلت فيها شعراً ، ثم أنشده :

سكتُ فقالت لِمْ سكتَ عن الحق
وقلتُ فقالت من دعاك إلى النطق
فأومأتُ هل من حالة بين ذا وذا
فقالت : وذا الإيماء أيضاً من الحمق
فلم أر لى إذ حلت الغرب راحة
من الشر إلا بالهروب إلى الشرق

فلما أتيت الشرق ألفيتها به

وقد قعدت لى منه فى أضيق الطرق

فضحك الاثنان ، وضم عبد الرحمن شفته السفلى إلى العليا وأبرزهما إلى الأمام احتجاجاً وأنفة .

الفصل الثالث عشر

سار ذكر الخليل فى العالم ، وتفاخر العرب به على العجم وبلغت أخبار ذكائه بلاد الروم ، وتحدث بهذا عربى فى مجلس ملكها؛ فقال له الملك ، لن أصدق ما ذكرت حتى أمتحنه،وفكر روياً فى الأمر ثم قال : أكتُبْ إليه كتاباً بلغتكم ، وضع فيه ما تشاء ، وسأرسله إليه لأرى هل يفهم مافيه ، وقد غيرت بعض شكله . فكتب إليه العربى كتاباً ، وأعطاه للملك إلى رجل ينقله بنصه العربى فى الحروف اليونانية القديمة التى لا يعرفها إلا القليل من المتبحرين فى اليونانية ، فنقل إليها ، ثم أرسله الملك إلى الخليل ، ووافى رسول الملك أبا عبد الرحمن وقال له : هذا كتاب بالعربية من فلان العربى إليك ، فاقرأه ، وإنى بانتظار الجواب لأرحل به . فأخذ الخليل الكتاب ، وأعطاه إلى أحد الحاضرين ليفضه ويقرأه ، فأخذه هذا ، وظل يمعن فيه وهو يقول : إن هذا الكتاب ليس بالعربية أبداً ؛ فيقول الرسول : بلى إنه بالعربية . ويتناول الخليل الكتاب ، فيدرك

أن فى الأمر امتحاناً له ، فيقول للرسول : انتظرنى حتى أكتب الجواب ، ويخلو بنفسه مدة ، ويخرج وقد نقل الكتاب إلى الحروف العربيـة ، ويقرأه على أصحابه ، ثم يريهم جوابه بالحروف اليونانية القديمة ، ويقرأه عليهم بها ، فيبهتون ويبهت الرسول ، ويقولون : متى كنت تعرف اليونانية ياأبا عبدالرحمن ؟ فيقول لم أكن أعرفها ، وإنى لا أعرفها حتى الساعة ، فيزدادون تعجباً وحيرة ، ويقسمون عليه إلا فسر لهم الأمر ، فيقول : لقد خلوت بنفسى ، وفكرت فى أمر الكتاب ، وقلت لقد زلق الرسول ، وادعى أنه بالعربية ، وكان حقاً عليه ألا يقول ذلك لأن معرفتى بأنه بالعربية مفتاح السر ، إذ لا يبقى على إلا أن استخرج لبعض الحروف اليونانية منه ما يقابلها بالعربيـة فينكشف الكتاب . قال كيسان ، وهو أحد تلامذته المخالفين : أو تعد استخراج مقابل بعض الحروف اليونانية بالعربية أمراً هيناً ، وأنت لا تدرى من هذه الحروف شيئاً ؟ قال الخليل : ويحك يا كيسان ! ولماذا أعطانا الله العقل والفكر ؟ أليس لنستفيد منهما ، فنخرج بهما من المآزق التى لا ينكشف أمرها بدونهما . قالوا : فماذا فعلت ؟ قال : قلت بنفسى إن صاحبنا

العربى فى بلاد الروم قد كتب ولا ريب كتاباً على عادتنا وشرعنا، فبدأه بكلمة نبدأ بها كل كتاب وهى « بسم الله الرحمن الرحيم» فأخذت أول الكتاب ، وصرت أقابل حروفه بحروف « بسم الله الرحمن الرحيم » حتى استخرجتها ، فعرفت من الحروف اليونانية عشرة حروف مما يقابل حروفنا ، فصرت أتتبع الحروف التى عرفتها فى الكتاب ، فأعثر على كلمة أكثر حروفها مما أعرف ، فاستنتج بالفكر بقية حروف الكلمة ، وقد عرفت أكثرها ، فيزداد عدد الحروف التى أعرفها . وكذلك استخرجت كل الحروف ، وكشفت الكتاب ، ونقلته إلى الحروف العربية ، وليس ما فعلته بالأمر العجاب .

ويذهب رسول الروم إلى مولاه بجواب الخليل ، فيستحضر الملك الكاتب بالحروف القديمة ، فيحل له الجواب ، فيجده موافقاً للكتاب ، فيملوا الرجل فى عينه . ويستفيد الخليل من هذه التجربة ، فينقطع زمناً لوضع كتاب فى الاشياء المعماة والرموز التى يصح أن تتخذ سبيلا إلى تقوية الذكاء والاستنتاج فيضع كتاب المعمى ، وينتشر بين الناس ، ويستفيد منه كيسان ، ويبرع فى حل الألغاز .

الفصل الرابع عشر

كان الإبداع عند الخليل عملا لا بد له منه ، يقضى فيه أوقات فراغه . ويتحدث به إلى نفسه ، ويطلق لفكره العنان، وكأنه كان عنده راحة من مضض الحياة ، وسلوة يجلو بها النفس ، وأكاد أقول ألهية يلهى بها حدة ذكائه ، ويظهر منه فائض نبوغه . كان يسعى وراء الأمور التى لابد فيها من عبقرية ومزيد فطنة ، فينكب عليها شغوفاً بها ، يستطلع منها آفاقا جديدة لذكائه المفرط .

ها هو ذا يجلس إلى رجلين عكفا على رقعة أمامهما ، ينقّلان قطعاً خشبية عليها ، فيتأمل هذه الرقعة ، ويسألهما إيضاح أمرها ، فيعجبان منه كيف لم يعرف أنها الشطرنج ، أجمل ألهية يلعب بها ، وأحسنها تمريناً للذكاء ، وأصدقها اختباراً له ، فيقول إنه سمع عنها الشيء الكثير ، وأعجب بمخترعها الفارسى الذى أبدع شيئاً عظيما من العدم ، ولكنه لم يتسن له أن يطلع عليها . فيشرع

الرجلان يتسابقان فى تفسير حركة قطعها ، فيسر سروراً عظيما ، ويقول : ما أحسن ترتيبها ، وأعجب سيرها ، وأدهش حيلها . لكن ما لهذه اللعبة حوت حيوانات القتال جميعاً ، ونسيت أصبرها على العطش وأقواها على السير وأمدها للمقاتل : نسيت الجمل الذى هو رفيق المحارب العربى وخادمه . قالا إن مخترعها لم يفكر فيه ، وأياً كان ، فهى كاملة تامة بترتيبها ، والعبرة بالجوهر لا بكيفية الوصول إليه . قال : إنى إن لعبت بها يوماً فلن ألعبها خالية من الجمل ، فهو عندى أليق بها من كثير من تماثيلها . قال ذلك ، ثم انطلق ذاهباً . ولعله كان يقول هذا على سبيل الفكاهة والتمثيل ، غير أنه ما تجاوز بعيداً ، حتى انطلق فكره فى ميدان الشطرنج وفى حركة أبطاله ، وامتد به التفكير ، فإذا به ينطلق خارج البصرة ، فلا يشعر بنفسه إلا وهو فى الصحراء ، ولم يردها . وكان لا يزال فكره مشغولا بالشطرنج ، فيقعد على رمال الصحراء ، ويخط عليها مربعاته ، ويتناول أحجاراً يمثل بها الفئتين المتصادمتين ، ويوجههما للقتال ، ثم يتخيل الجمل بينها يعمل عمله ، ويؤدى مهمته . ولا يزال منطلقاً فى بحر فكره حتى يأتى المساء ، ويسود الصحراء بعض العتمة ، فيخف عائداً

إلى بلده ، وهو لا يدرى أنه ابتعد عنها كثيراً . ولا يزال سائراً حتى يلقى الظلام ثوبه المعتم على البرية ، ويكون الخليل قد وافى ضواحى البصرة ، لكن أمامه درباً طويلا عليه أن يقطعه حتى يدخلها . ويخشى أن يلقى فى طريقه سبعاً من سباع البرية ، فلا يقوى عليه ، وهو أعزل حتى من العصا . ويذكر أن فى أحد جانبى الطريق صومعة لراهب انقطع فيها للعبادة ، فيجد أن خير ما يفعل الالتجاء إلى ذلك الراهب أثناء الليل ، ويكشف عن طريق الصومعة فيجده غير بعيد، فيتجه فيه ، حتى يبلغها بعد أن يتسلق سلماً إليها ، يبعده عن خطر الطريق ، فيطرق بابها ، فتفتح كوة من أعلاها ، ويظهر رأس الراهب منها ، وهو يقول : من أنت ياهذا ، وماذا تريد ؟ فيقول : أنا الخليل بن احمد الفراهيدى ، وأمنيتى إليك السماح لى بقضاء الليل عندك ، فقد وافانى ظلامه ، وأنا فى طريقى إلى بيتى . وينظر الراهب إليه فاحصاً ، فيجد رجلا شعث الرأس ، مرقع الثوب ، فيقول : أنى لك يا هذا أن تكون الخليل بن احمد ، والناس يزعمون أنه واحد فى العلم ، وليس فى العرب مثله . قال : إن الناس يزعمون ذلك ، وهم مغالون . ولكن ما الذى يدعوك إلى أن تتهم صدقى فى أنى

الخليل ؟ قال إن سيماءك الفقر والتقشف ، ولا أرى الخليل — وهو من يدعون — يتزيا بزيك . قال الخليل : عجيب من راهب مثلك ، يلبس المسوح ، ويرى الزهد والامتهان لأمور الدنيا ، أن يستكثر على الخليل — وهو يظن فيه الخير — احتقار الظواهر وامتهان التجمل . عجيب منك أن تريده كالطاوس ، يزهو بريشه وألوانه . قال الراهب : لن يخدعنى كلامك الجميل البليغ هذا ، فأصدق أنك الخليل . لأنى عرفت فى العرب طلاقة لسان وحسن بيان ، يتفق بهما العالم والأمى منهم ، وما أصدق أنك الخليل إلا بعد امتحانك . إنى سائلك عن أمر أستدل به عليك ، قال الخليل : سل وعجل . قال : ألسنا نستدل على الغائب بالشاهد ، فلا نحكم بوجود الغائب ، إلا إذا كان حاضر يشهد به قال الخليل : أجل ، فالإنسان لا يعرف الخفى إلا بأثر شاهد يدل عليه . قال الراهب : أحسنت ، الخليل يقول إن الله تعالى ليس بجسم ولا عرض ، فهل ترى شيئاً بهذه الصفة ، حتى تدعى هذه الدعوى : إنك لم ترقط ، أجبنى عن ذلك جواباً مقنعاً ، حتى أصدق بأنك الخليل . قال : لك ذلك ، أنى استدللت على الله تعالى بأفعاله الدالة عليه ، ولا مثل له ، وفى المشاهد

المعروف ، المعترف به ، المسلم بأمره ما يؤكد ذلك ، تعالى الله عن المشابهة . ما قولك فى الروح التى فيك وفى كل حيوان ، ألا تحس بها ، وترى أثرها ، وتقر بوجودها ، وتدعوها باسمها ، وتحاول تهذيبها ، ويبكى الناس لخروجها من عزيز عندهم ، ويخشون زوالها عنهم . أتدرى أين مستقرها ، وكيف هى هيأتها وصفتها، وماهو جوهرها. هل تشعر بشىء يخرج من الإنسان الذى يموت ، وأنت تقول إنها تفارقه حين يفقد الحياة ؟ إنك لاتدرى ولا تحس بشىء من ذلك ، ثم تؤمن بوجودها ، وتدعى أنها ليست جسما كالذى تشاهده . و بعد ، فهذا شاهد تسلم به ، واستشهد به فى دعواى ، فافتح لى الباب لأدخل . قال الراهب ذلك أول سؤال عرفت به شيئاً من حالك ، وعندى سؤال آخر ، ينبئنى بالكثير عنك ، و إنه لتابع للأول : الست تزعم أن الناس فى الجنة يأكلون ويشربون ولا يتغوطون ؟ قال : نعم ، قال : متى وأين رأيت أناساً بهذه الصفة ، وأى شاهد لك على هذا الزعم ؟ قال الراهب ذلك ، وابتسم ابتسامة الواثق من أنه أوقع خصمه بما لا قدرة عليه . فأطرق الخليل هنيهة ، ثم رفع رأسه ، وقال : الشاهد فى ذلك قريب عجيب ، وهو أنت وأنا وكل

الناس . قال الراهب : ياللعجب ! أتهذر أم عجزت ؟ قال : كلا ، وما أقول إلا حقاً ، فأنت وأنا وكل إنسان مر علينا قريب من حول أكلنا فيه وشربنا ولم نتغوط . قال الراهب : متى وأين ، قل ولا تعقد . قال الخليل : إن الإنسان قبل أن يرى هذا العالم يبقى تسعة أشهر فى بطن أمه ، وهو يتغذى منها دون أن يتغوط ، وقد مررتُ بهذا الدور . ومررتَ ، ومر كل الناس . أفبعد هذا الشاهد من بيان ؟ قال الراهب : أحسنت أحسنت يا خليل ، صدق من قال إنك أذكى العرب وأوحدهم . قال الخليل : هل آن لك أن تفتح الباب يا هذا ، فقد أظلم الليل ، وتعبت قدماى . قال الراهب : لن أدعك تدخل حتى تبين لى الشاهد فى أن نعيم الجنة لا ينقضى مع أن أوله موجود ، فإنى ما أحسب أنى رأيت أمراً له أول ، إلا وهو ينقضى و يزول . قال الخليل : لن أذكر لك شاهد هذا الأمر ، إلا إذا وعدتنى بفتح الباب فوراً بعد الجواب ، فقد أطلت . قال : لك ذلك ، أى ور بى . قال : هل تعلمت الحساب ؟ قال : نعم ، قال : عد لى . قال : ما شأن ما نحن فيه والعد ؟ قال : لن ترى الجواب إلا به . قال : واحد اثنين ، ثلاثة ، ومضى فى العدد . قال الخليل : هل تستطيع أن

تقف على عدد ليس بعده آخر ؟ قال : إنى مهما عددت فهناك رقم أعلا منه . قال : كذلك نعيم أهل الجنة ، له أول وليس له آخر . فبادر الراهب إلى الباب وفتحه ، واستقبل الخليل بين ذراعيه ، وقال له ، إنك لأوحد الدهر حقاً ، فادخل ولك عندى خير ضيافة .

لم يقطع الخليل ما حصل معه هذه الليلة عن إكمال الفكر بالشطرنج ، فما هو بالرجل الذى يكل ويمل فى عمل قصده . وكان على من يقصد الاختراع فى الشطرنج أن يلازم لاعبيه ، ويشاهد لعبهم ليستخرج من المشاهدة غايته . ولكن الخليل رجل فكر أكثر منه رجل مشاهدة وتمرين ، فسبيل المشاهدة والتمرين لا يقود بعيداً إلا بالصدفة ، أما العقل ، فسبيله أقرب ، وخياله أوسع ، ومادته أغزر . وبه وجد الخليل مكاناً لجملين من طرفى الرقعة يلعب بهما ، واستحسن الناس ما وجدوه ، فلعبوا بالجملين حيناً من الزمن طويلا ، ثم تركوهما فى حين لعل القريحة خفت فيه ، والفكر ملّ التأمل .

الفصل الخامس عشر

ما زال الخليل منقطعاً إلى العلم وتعليمه ، ولم يكن يكتفى بأن يعلّم المعارف والعلوم ، بل كان يريد فى الوقت نفسه أن يعلم الأخلاق الحسنة والطباع الجيدة .

دخل أبو محمد اليزيدى على الخليل،فوجد مجلسه منعقداً حافلا، والخليل جالس على طنفسة صغيرة فى صدر المجلس ، والمهابة ناطقة على وجهه ، والناس بين يديه فى حياء منه وإجلال له . فصار أبو محمد يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، يبحث عن مكان يجلس فيه . فالتفت الخليل فرآه على هذه الحال، فقال : إلىّ ياأبا محمد ، فنظر أبومحمد ، فما وجد مكاناً فارغاً بقربه ، فأشار إليه بطرف خفى : ليس لى مكان عندك ، وما أجد فراغاً أجلس فيه . ولكن الخليل عاد يقول : ههنا عندى يا أبا محمد . فقال هذا وقد ضاقت حيلته: أخاف أن أضيق عليك فقال الخليل : هلم ، فاقترب منه ، وهو منقبض ، فأخذ الخليل بعضده ، وقربه منه ، وأجلسه بحذائه ، وقد وسع له، ثم قال: «إن الدنيا بحذافيرها تضيق عن متباغضين، وإن شبراً فى شبر

لا نضيق عن متحابين » ، فجلس أبو محمد ، وقد سره وصف الخليل له بالصداقة والحب . وجرى هذا الكلام مجرى المثل . وانطلق الخليل يتكلم عن العلم والعلماء وفضلهم . فقال أحد طلابه : أليس المال أفضل من العلم ، إذ يجلبه و يسببه ؟ قال : كلا ، ما هو أفضل منه ، والعلم هو الذى يجلب المال ، ولا شىء يعدل العلم و يفضله . فقال : ولا الملوك والأمراء ؟ قال الخليل : لا الملوك ولا الأمراء ولا غيرهم يفضلون العلماء . قال : فما بال العلماء يزدحمون على أبواب الملوك ، ألا يعنى ذلك أنهم يلجأون إليهم ، و يعتقدون فضلهم وتقدمهم ، ثم ما بال الملوك لا يزدحمون على أبواب العلماء بل يدعونهم إليهم بإشارة منهم لهم ، قال الطالب ذلك ، وقد شعر بأن حجته أقوى من حجة أستاذه ، وصار ينتظر ما الخليل قائل ، و إذا بهذا يقول : لقد عرف العلماء حق الملوك وواجبهم نحوهم فى نصحهم وهدايتهم ، فسعوا إليهم ليرشدوهم و يعلموهم ، وجهل الملوك حاجتهم إلى العلماء وحقهم ، وظنوا أنهم خير منهم ، فلم يسعوا إليهم ، فكان من ذلك خراب لأمر كثيرين منهم ، لم يسألوا أهل العلم فيما لا يعلمون . فأطرق الطالب وانقطع ، وكتب الطلاب على ألواحهم هذه المحاورة ، ثم انفض المجلس بهذا أو بمثله .

الفصل السادس عشر

لم يكن للخليل هوى غير هوى العلم ، اللهم إلا تعلقه ببازى كان ينفق عليه مايفضل عن قوته ، وكان كثيراً ما يخرج فيصطاد به ، ويقوى بدنه وينشط فكره ، وقد يمتد به الصيد برفقته ، فيقضى أياماً وهو بعيد عن منزله .

عاد مرة من صيد استغرق معه أمدا ، فوجد الناس يتراكضون إليه ويخبرونه أن الشعراء بثوا عليه العيون والأرصاد ليعثروا عليه ، وهم ما يزالون يبحثون عنه . وكان الخليل حكمهم ورئيسهم ، فما استحسنه من أقوالهم اشتهر وحاز القبول ، وما لم يستحسنه سقط . فعجب الخليل لأمرهم ، وظن أنه وقعت بينهم منافرة يريدون رأيه السريع فيها . وما وافى البيت حتى رآهم ينتظرونه ، فحياهم فاستقبلوه بلهفة ، فسألهم عن أمرهم ، فقالوا مدحنا الأمير جعفر بن سليمان بن علي العباسى بالقصائد التي كنا أعددناها قبل مسيرك ، ووافقت عليها ، فسمعها ولم يتقدم إلينا بالجائزة ، بل ماطلنا بها ، فضاق الأمر بنا ، وحاجتنا

إلى المال ما تعرف . فقال الخليل : أعطونى رقعة أكتب لكم كتاباً عليها إليه . فأعطوه ما كتب عليه كتابه ، ولم يقرئهم تلك الرقعة ، بل ختمها ووجههم بها ، فأوصلوها إلى الأمير ، فما أنهى قراءتها حتى أمر لهم بجوائز حسنة ، وزاد فى إكرامهم . وتشوقوا إلى معرفة ما بالرقعة ، فألفوها بالديوان ، وإذا فيها .

لا تقبلن الشعر ثم تعقه   وتنام والشعراء غير نيام
واعلم بأنهم إذا لم ينصَفوا   حكموا لأنفسهم على الحكام
وجناية الجانى عليهم تنقضى   وحكومهم تبقى على الأيام

فعرفوا بذلك من الخليل حسن رأيه فيهم ، وقوة تسلطه على الأمراء .

الفصل السابع عشر

اكتسب الخليل الرياسة بين العلماء والشعراء بحق ، وكان من رضى عنه حاز المنزلة العليا عند الملوك ، وأصاب الغنى . أما هو نفسه ، فما برح فقيراً . كان تلاميذه يعيشون فى القصور ، ويمرحون بالخز والديباج وهو فى بيت من خشب ، وثوب مرقع ليس فى طياته فلسان . وكان مظهره ولين طباعه وتواضعه تخدع ذوى النظر القصير، فيستطيلون عليه بما لا يصح أن يجرى أمامه وإذا هو يعيدهم إلى حظيرتهم الدنيا بكلام يجرى مجرى المثل . ها هو ذا فى مجلس ملتئم تطرح فيه عليه الأسئلة ، فيفيد بأجوبته ، وهذا هو رجل من فزارة جاهل أحمق غبى يدخل فيأخذ مكانه من المجلس ، وكان قد سمع كثيراً عن الخليل وعن ذكائه ، فيرى شيئاً لا عهد له به ، فيجلس منصتاً . وإذا برجل يتقدم إلى الخليل بسؤال ويقول : سيدى الشيخ ! ما معنى قوله تبارك وتعالى : رب ارجعون . فيطرق الخليل ، ويبحث عن

الجواب فلا يجده ، فيقول : سألتمونى عن شىء لا أحسنه ، ولا أعرف معناه . فاستحسن الناس منه تلك الصراحة ، ولكن الفزارى يستقبح هذا الجواب ، وتبدو على وجهه دلائل امتهان المجلس ، وينتبه الخليل إلى ذلك فيسأله على عادته مع الحاضرين مسألة ليصرفه بها عن موقفه ؛ فيبطىء بالجواب محاكاة بالخليل فيعيد هذا السؤال عليه ، فيتضاحك الفزارى ، فينتظر الخليل انقطاع ضحكه ، ثم يقول لجلسائه : الرجال أربعة ، فرجل يدرى ويدرى أنه يدرى ، فذلك عالم فاسألوه ، ورجل يدرى ولايدرى أنه يدرى ، فذلك غافل فأيقظوه ، ورجل لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى ، فذلك جاهل فعلموه ، ورجل لايدرى ولا يدرى أنه لا يدرى ، فذلك مائق جد أحمق فارفضوه . ثم يلتفت إلى الفزارى ويقول :

ومن أعجب الأشياء أنك مائق وانك لاتدرى بأنك لاتدرى

وينظر أهل المجلس إلى الفزارى ، وقد تصبب العرق من جبينه فشرع يبحث عن الانصراف وهو يتعثر بأثواب خجله .

وجاء رجل آخر يمتحن الخليل بمسألة ، فجعل الخليل يفكر وأطال التفكير، وأبطأ فى الجواب، فأعجب الرجل بنفسه، وقال للخليل

متفاخراً متباهياً : لم تُكثر الفكر والتأمل ؟ فليس فى هذه المسألة من الصعوبة ما يستدعى إطالة النظر ، فقال الخليل : قد عرفت مسألتك وجوابها ، وإنما فكرت فى جواب أسرع لفهمك ، فأتعبت نفسى بما قصدت إراحتك به . فخجل الرجل وانصرف .

عرف معظم الناس جليل قدر الخليل وحسن رأيه وقوة بصيرته ، فاعتمدوا عليه بما يخرج عن حد علمه وأبواب اختصاصه ؛ فكان بذكائه وقريحته يفيدهم بأكثر مما يستفيدون به من أهل الاختصاص . من ذلك أن الأمير عباد المهلبي اتخذ أرضاً أراها للخليل ، واستشاره بغرسها ، فأمعن الخليل نظره فيها وقال أغرسها وستنبت بمشيئة الله كل شىء بهيج . فعمل بمشورته وغرسها ؛ ورأى أصحابه — ممن كانوا يعرفون الفلاحة — هذه الأرض، فلاموه على غرسها ، وخوفوه من الخسارة ، فصار ينتظر نتيجة أمرها ، وإذا هى تأتى بكل شىء حسن ، فحمل إليها الخليل ، وهو مبتهج بها ، فسر الخليل بما فيها ، وقال شعراً فيها من أجود ما قيل فى البساتين ومواضع الأشجار ، وأشار إلى لوم اللائمين فيها فقال :

ترفعت عن يد الأعماق وانخفضت
عن المعاطش واستغنت بسقياها
فالتف بالزهر والريحان أسفلها
ومال بالنخل والرمان أعلاها
وصار يحسـده فيها أصادقه
ولائم لام فيهـا قد تمنـاها

الفصل الثامن عشر

كان الخليل يحب النصح والرشد ، ويدعو إليهما ، وينحو نحوهما ، وآل به الأمر فى ذلك أن عقد مجلساً فى المسجد الجامع، يعظ فيه الناس ويهديهم سواء السبيل . وكان يكثر فى مواعظه من عدم الاحتفال بالدنيا وزخارفها ، ويدل على حقيقتها وصواب أمرها ، فيقول من ذلك الحكمة التى تسجل، والرأى الذى يبجل. كان ذات يوم قد جلس مجلس الواعظ ، والتف الناس حوله ، واكتظ المجلس، والسكوت سائد، وصوت الخليل يخرج مستقيما متئداً ، ليس فيه تدليل بفخر القائل واعتزازه بنفسه ،ولا استكانة المتصوف الغارق فى بحر التذوق . كان يقول: ما أغرب أمر الدنيا وأعجب شأنها ؛ الدنيا أشياء مختلفات ائتلفت وتقاربت وتجاذبت، الدنيا أشياء مؤتلفات اختلفت وتباعدت وتضاربت ، الدنيا أضداد متجاورة ، وأشباه متباينة ، وأقارب متباعدة ، وأباعد متقاربة . ألا من أراد أن يكون فيها سعيداً ، وبها رشيداً ،

فليعتبر ذلك فى نفسه ، وليعمل على أن تكون منزلته عند ربه منزلة أفاضل عباده ، وأن يكون رأى الناس فيه وسطاً لا سوءاً ولا جمالا كثيراً ، وأن يكون رأيه فى نفسه سيئا بحيث يحسب نفسه شر النفوس . بهذا تتم له الراحة فيرضى الله عنه ، ولا يسوؤه من الناس تقبيح أمره ، ولا يخدعه منهم مديح وثناء ينفخان شدقيه ويوردانه مورد العطب ، ثم يعرف نقصان نفسه فيعمل على تحسينها ، ويدرك قبيح أمره فيجهد نفسه فى تجميله ، فيبقى لنفسه مصلحاً ، ونحو العلى جاداً .

أيها الناس ! ألا بحسب امرىء من الشر أن يرى فى نفسه فساداً لا يصلحه ولا يقومه ، ألا إن هذا لشر عظيم ، ألا إن العاقل غير ذلك ، فانه إذا علم بفساد نفسه علم بصلاحها.

أيها الناس ، أقبح التحول أن يتحول المرء من ذنب لم يتب منه إلى ذنب يشرع فيه ، فيكون قد عانى من أمره السوء تلو السوء.

قال رجل فى المجلس : لقد زهدتنا وأحسنت تزهيدنا ، فهل لك أن تدلنا على معنى الزهد بأقصر عبارة نحفظها عنك ونتداولها نقلا منك ؟ قال الخليل : الزهد ، هو أن لا تطلب الشىء المفقود حتى تفقد الشىء الموجود . وسأزيدكم رغبة فيه : انظروا لمن يجمع

المرء المال ولمن يخلفه ، إنما يجمعه لأحد ثلاثة ، كلهم أعداؤه ، إما لامرأته التى توشك أن تتزوج فور وفاته ، فتلقى بأمواله بين يدى زوجها الجديد ، و إما لزوج ابنته الذى ينتظر موته اللحظة بعد اللحظة ، و إما لزوج ابنه التى تتحرق أسى على انتقال ماله إلى زوجها لتستبد فيه . فماذا يكون أمر العاقل الناصح لنفسه من هذا أيؤثر هؤلاء على نفسه ، فيخلف لهم ماله ، أم يوزعه على الفقراء والمساكين ، ويجعل توزيعه زاداً لآخرته ؟ .

بينا كان الخليل يتحدث إلى الناس بذلك ، وهم آذان واعية وعيون دامعة، إذا بشاب قد أخذ الجهل من نعومة وجهه، ولعب الشقاء فى ثوبه ، فبرمه وفتله على غير المألوف ، يقف على الحلقة متبرما متجاهلا . وما ينتهى الخليل من كلامه إلى الحد الذى سمعناه ، حتى يوقفه هذا الشاب الجاهل ببيت من الشعر ينشده رافعاً صوته مشيراً بيده يقول :

وغير تقىّ يأمر الناس بالتقى
طبيب يداوى والطبيب مريب

ولم يدر هذا الجاهل المتعنت قدر الخليل ، ولا عرف أنه يفعل أكثر مما يقول ، فأراد أن يعكر عليه صفاء وعظه ، فنسبه إلى

القول بخلاف ما يفعل . والتفت الناس متعجبين مستهجنين ، وحصل لغط فى الحلقة ، وكاد بعض المتحمسين للخليل ينهضون إلى هذا السفيه ليؤدبوه ، ولكن الخليل أشار إليهم بألا يفعلوا . وقال : إسمع قولى يابنى واحفظه ، و اليك هو :

اعمل بعلمى ولا تنظر إلى عملى

ينفعك علمى ولا يضررك تقصيرى

فسكت الشاب ، وعاد الخليل الى موعظتـه ، وقد أعطى الحاضرين درساً فى الأناة والحلم والعقل ، لايعادله تعليم بالكلام ولا وعظ بالحسنى .

الفصل التاسع عشر

أقام الخليل بالبصرة، فكان لا يخرج منها إلا لحج أو غزو. على أن كبار الأمراء والولاة مازالوا يدعونه ، و يلتمسون حضوره إليهم ؛ وهو يأبى ذلك عليهم ، ولا يرغب فيهم . وكانت حاله تزداد سوءاً ؛ فقد مرت أيام على البصرة سوداء ، قل فيها التمر والمحصول ، وضاقت الحال بالخليل بما لا يحتمل ! ولكنه صبر صبر الكرام ، يتعزى بعلمه ، و يتسلى ببازيه وصيده . وأقبل يوم ، و إذا بشائعة تسرى فى مدينة البصرة ، يتناقلها الناس ، و يضجون لها . قال قائل : لقد عزم الخليل أن يدع البصرة ، و يرحل إلى خراسان ؛ قال آخر : هذا ما لا أصدقه ، فكيف يترك الخليل البصرة فى شيخوخته ، وقد أبى أن يغادرها فى شبابه وكهولته . و إلى من يسير فى خراسان ، وقد رفض كل تقدمة من أمير وسلطان . قال الآخر : يقولون إنه راحل إلى الليث بن المظفر ابن نصر بن سيار ؛ وانقطع الكلام ، فما كان أحد يعرف من

هو الليث هذا وما شأنه مع الخليل . وما مضت أيام حتى أذاع الخليل خبر سفره ، وذكر اليوم الذى سيخرج فيه . وحل اليوم الموعود ، واجتمع الناس لتشييع ابن البصرة وصاحب علمها ورئيس شعرائها ورافع اسمها . وكان عدد المشيعين ثلاثة آلاف رجل ما فيهم إلا محدث أو نحوى أو لغوى أو إخبارى . وسار الناس مع الخليل فى ركبه ، حتى بلغوا المربد ، فأوقفهم وخطب فيهم يقول : ياأهل البصرة ! يعز على والله فراقكم ، فأنتم أهلى وأصحابى وعشيرتى ، فيكم نشأت ، ومن لبانكم تغذيت ، أحببتكم قبل أن تحبونى ، ثم أحببتمونى فازددت بكم حباً ، دعيت لفراقكم المرة بعد المرة ، فلم أعر الدعوة التفاتاً ، ومكثت بينكم أزداد حباً فى بلدكم وارتباطاً بها ، وكانت هذه أيام سدّ فيها باب المعاش علىّ ، وتضرر الأهل والولد ، وكثر اللوم ، فلم يثننى عن عزمى إلا دعوة من رجل صالح عالم ، قصد أن يوفر لى الراحة فى الشيخوخة بأجر أتقاضاه على علمى ، فيسهل العيش على الأهل . والله يا أهل البصرة ، لو وجدت عندكم كل يوم كبلجة باقلاء ، ما فارقتكم ، فوداعاً أيها الأصحاب ، ودعاء لى . فضج الحاضرون بالدعاء له ، وبكى كثيرون على فراق هذا الرجل الذى ما رأوا

منه إلا الخير ، والذى أنس إليه الكبير والصغير ، وأحبه البؤساء والمساكين . وبكى صغار الطلاب أكثر من غيرهم ، فلن يجدوا فى البصرة من يعلمهم مثله ، ومن يؤدبهم بأخلاقه ، ومن يعظهم موعظته ، ثم سار ركب الخليل ، والناس يحيونه ويقولون : فى ذمة الله أبا عبد الرحمن سر مجدوداً ، وليحفظك الله أنى حللت ، وحيث رحلت ، فلن تلد الأمهات مثلك . فسار حتى غاب ركبه عن الأبصار .

وعاد أهل البصرة إلى ديارهم متثاقلين وقد فقدوا عزيزاً ، وودعوا غالياً ، وحرموا أنساً شديداً ومجالس عامرة . أما الخليل فكان يسير مبتعداً عن البصرة ، وعيناه مغرورقتان بالدمع ، يودع صروحاً كانت له مرتعاً ، ولعلمه منشأ ؛ فيها أبدع ما أبدع ووضع من العلوم والمسائل ما وضع . وكان يتساءل : أيان تكون العودة إليها وهل يتهيأ له بسفره الراحة التى ينشدها ، ثم إذا تهيأت له ، فهل يتهيأ لفكره القريحة التى أعطيها فى البصرة . هل أغلق باب تتبعاته فلن يخلق جديداً ؟ وكانت هذه الفكرة الأخيرة أبعث الأشياء لخفقان قلبه وترقرق دموعه ! فهو لا يستطيع أن يحيا بدون الإبداع . فإذا كانت غير أرض البصرة لا تصلح لإمداد قريحته بزاد الفكر

والإبداع ، فلن يسعد بل يشقى . دارت هذه الأفكار فى مخيلته ، فاضطرب باله ، وصار يبحث عن دافع يدفعها به ، ويقصيها عنه ، فلم يجد إلا الفكر بابداع جديد يشرع فيه . وكأنه لم يشأ أن يترك البصرة إلا والأمل فى الإبداع رفيقه ، فانطلق بالفكر، وهو يقول : لقد حصرت الأنغام ومقاديرها وأنواعها ، فضممت كلاً إلى نوعه ، ثم حصرت أوزان الشعر العربى بتوفيق الله ، فما لى لا أفكر فى حصر ألفاظ اللغة العربية ، بشكل علمى تام كامل ، لا يغادَر منها فيه لفظ ؛ وما بدت هذه الفكرة له حتى طرب لها ، وامتلأت نفسه بهجة ، وفارقه اضطراب نفسه . وما فتىء طول الطريق يعمل فكره فى هذا الاختراع العظيم ، حتى وافى خراسان ، وفى ذهنه منه بعض الخطوط .

تلقاه الليث بن المظفر بترحاب عظيم . وكان الليث من أحفاد نصر بن سيار ، ذلك الأمير الذى تنبأ بمصير الدولة الأموية فقال :

أرى تحت الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام
فان النار بالعودين تزكى وإن الحرب مبدؤها كلام

وكان الليث كاتباً بارعاً وأديباً حسناً ، ورث البلاغة والشرف من أهله ، وكان تقياً صالحاً حسن الطوية بارع الأخلاق ؛ أحبه

الخليل لما عرف عنه ، فرضى بصحبته ، ورحل إليها ، فوجد رجلاً يعد رفقته له شرفاً كبيراً وخيراً عميماً . وانقطعت عن الخليل همومه فى المعيشة ، وألفى رزقاً كبيراً فى خراسان ، وانطلق للفكر فى مشروعه الجديد ، فوجد من حق صاحبه عليه أن يفاتحه به ويسره إليه ؛ وكان يعلم أن ذلك يفرحه . فقال له يوماً : إنى ما فتئت منذ خروجى من البصرة أفكر فى أسلوب أحصر به كلام العرب جميعاً ، فلا تشذ كلمة عنه ، فقال الليث : إن هذا والله لعمل عظيم مفيد ؛ ولكن كيف يتهيأ لك حصر كل الألفاظ وهى مشتتة فى معان مختلفة ، لا يجمعها جامع ، وهبك حصرت كل ما قالته العرب من ألفاظ فى أسماء الشعر وأوصافه ، فمن أين لك أن تحصر الأدوات التى تستعمل له ، والأدوية التى تنفعه ، والأمراض التى تعلق به . قال الخليل : لا ، ليست تلك الطريق التى تحصر الألفاظ ، فإن ذهن الإنسان بل الناس جميعاً لا تطيق حصر الألفاظ التى استعملها العرب فى مادة من المواد . وكل من عمل كتاباً فى الشجر أو النبات أو الخمر أو السباع ، لم يأت إلا ببعض المسميات ، وغاب عنه منها عدد كبير . كلا، لن يكون هذا الطريق صالحاً ، انما أفكر بحصر تام كامل لكل مايمكن أن

يتركب من ألفاظ العرب . فنظر الليث إليه متعجباً ، وهو على ثقة من أنه مقدم على إبداع لم يسبقه إليه أحد . و إذا بالخليل يوضح له فكره فيقول : بِمَ تتألف الكلمة ؟ أليس من الحروف ، ثم أليس عدد الحروف محدوداً ؟ إنها فى اللغة العربية تسعة وعشرون حرفاً ، إذا اجتمعت كونت الكلمة . ومن هنا يخطر على البال خاطر ، وهو ألا يمكن أن يعرف تراكيب كل حرف من الحروف مع الأخرى ، فالألف إذا اجتمعت مع الباء كونت أب ، و إذا اجتمعت مع التاء كونت أت ، ثم إذا ضربت هكذا ببقية الحروف أخرجت ألفاظاً عددها ثمان وعشرون لفظاً ، وكل لفظ من هذه يضرب بدوره مع حروف العربية ، فيخرج أبت ، ابث ، أبج وهلم جرا ، أفلا ترى أننا نستطيع أن نحصر الألفاظ التى أولها الألف بهذه الطريقة السهلة . ونعمل الأمر نفسه ببقية الحروف . لم يستطع الليث أن يفهم هذا الكلام على حقيقته ، فقد كان جديداً كل الجدة بالنسبة إلى ذلك العصر . على أن الخليل لم يقف عند هذا الإيضاح ، بل قال : ولكني أبحث عن وجه أسهل من هذه الطريقة ، فأنا أرى بعد الحساب أنه يجب أن أكوّن على هذا الأسلوب (١٢٣٠٥٤١٢) لفظاً ، وهذا عمل

لا يحصره دفتر ولا كتاب ؛ وذلك ما يوقفني و يؤسفني . وأدرك الليث أن المشروع من الضخامة بحيث لا يقدم عليه امرؤ. ولكنه بعد الفكر ، وجده جليلا مفيداً ، يجب أن لا توقف عن القيام به صعوبة ، فاللغة العربية تظل بدونه عرضة للتشويه ، بحيث لا يعرف الأعاجم : أنطق العرب بلفظ مطلوب أم لم ينطقوا به . و إذا ادعى منهم مدع أنه مستعمل ، ولم يكن من كتاب يحصر الألفاظ المستعملة ، كان سبيل إقناعه صعباً . ثم من أين يتأتى للغة العرب رجل كالخليل يفكر بضبط ألفاظها وحصرها ؟ بقي الليث يناجي نفسه بتلك الأفكار ، فيزداد شغفاً بهذا العمل ، وأصبح فأسرع إلى الخليل ليستزيده من المشروع ، ولكن ماذا ألفى ؟ وجد الخليل مستلقياً على الفراش، والحمى تسري في عروقه وهو يتقلب من الألم. فاضطرب الليث ، و بوغت بما لم يكن يتوقع . كانت الحمى آنذاك شديدة الوطأة ، لا سيما على شيخ كالخليل، ليس له من الشباب ما يدفعها به . وفتح الخليل عينيه وقال : لقد أصبت بما ترى ، فما عدت أستطيع أن أفكر بإكمال العمل ، وقد تشتت فكري ، واضطربت أعصابي ، وسأجمع شتات مخيلتي ، فأشرح لك الأمر شرحاً ثانياً حتى تستوعبه

فتقوم به عنى ، إذا أنا مت . قال الليث : كلا ، لن تموت يا عزيزى ، ولن تصاب العربية بك ، فتفقدك فإنها أحوج ما تكون إليك الساعة . قال الخليل : اسمع وقيد فى دفترك . لن يحصر من ألفاظ العربية إلا مصادرها . أما ما تبقى فيخرج من المصدر ، ويعول عليه فيه . والمصادر لا يمكن أن تتكون من أكثر من خمسة حروف ، فالحروف لن يضرب بعضها ببعض أكثر من خمس مرات ، وفى هذا العدد تخفيف للعمل عظيم . قال ذلك ثم أطبق عينيه ، وأصابته رجفة ، فصار الليث يسعفه بما يستطيع ، واستدعى الأطباء وتلهف لمعرفة نتيجة فحصهم له ، فأخبروه أنهم لا يستطيعون معه شيئاً ، وأنه يجب أن يوكل إلى العناية الربانية . وكان الليث متهيئاً منذ أمد بعيد للحج فى هذه السنة ، وقد أعد العدة لذلك ، وحل ميعاد السفر ، فصار يتلظى حسرة على ما هو واقع بالخليل ، يدعو الله آناء الليل وأطراف النهار أن ينقذه . ولم يستطع أن يؤخر فريضته ، وقد عزم أمرها ، فوكل بالخليل الأطباء ، وسار فى طريق مكة ، ونفسه قلقة مضطربة . وطال به السفر كثيراً ، وما رجع إلى خراسان إلا بعد زمن طويل ؛ فما كاد يشاهد من أهلها أولهم ،

حتى سأله عن الخليل وعن صحته ، فأخبره بانقضاء الحمى وشفاء المريض ، ففرح الليث فرحاً شديداً ، وأمر بتفريق مال عظيم شكراً لله . وما وافى أبواب خراسان ، حتى ألفى الخليل بوجهه الوضاء ولحيته البيضاء وسيمائه الذكية ، فخف إليه يعانقه ، فألفاه منشرح الصدر مبتهجاً . وما عتّما أن وصلا إلى الدار ، وأقبلت الوفود تحيي الليث ، وهو منتظر فراغها ليستفهم من الخليل عن مشروعه . ولما انفرد به طفق الخليل يقص عليه سير عمله ويقول : عاجلنى الله بالشفاء ، فشكراً له وحمداً على آلائه ، ثم حبانى بما أحمده عليه أكثر من حمده على الصحة ، لقد فتح لى باب إنجاز الفكر فى الأمر الذى تحدثت إليك به قبل سفرك إلى الحج ، فوجدت أن ترتيب الحروف على طريقتنا التى ألفناها (ا ب ت ث) يجعل المشروع صعباً غاية الصعوبة ، وهدانى الله إلى طريقة فى النطق أرتب بها الحروف بحيث إذا ضرب بعضها ببعض ظهرت الألفاظ المستعملة جنباً إلى جنب ، واجتمعت الألفاظ المهملة بمكان متقارب . فأنت تعلم أن لكل حرف مكاناً فى الفم يحدث منه . فالعين والحاء والهاء والخاء والغين تخرج من الحلق ، وتحدث فيه ؛ والقاف والكاف تحدث فى اللهة ، والفاء والباء

والميم تحدث فى الشفة ، وهلم جرا . ولمكان حدوث الحروف أثر فى إمكان تأليف لفظ مستعمل منها ، أو عدم إمكان ذلك . فأكثر الألفاظ المهملة ، إنما تتكون من حروف تحدث من مكان متقارب ، أو من الكلمات التى لا تدخلها الحروف الزولقية التى تحدث من الأسنان . فترتيب الحروف على سياق نطقها يقرب معرفة المهمل من المستعمل وفصلهما بعضهما عن بعض . ووجدت بهدى من الله أن هذه النتيجة تستدعى أن تؤخذ تراكيب الحروف لا بضرب كل حرف بالتتالى مع الحروف الأخرى ، بل بأخذ تراكيبه مع بقية الحروف دفعة واحدة ، فإذا جمعت مضاريب القاف مع العين استخرجنا منها قع وعق وهكذا . وسأشرع بالعمل عما قريب ، وأرانى أصبت النهج الصالح ، وسأدعو الكتاب كتاب العين . قال الليث وهو طروب : إنك لأعجوبة الدهر ، فكيف تكتشف هذه الأفكار ، وهى مخبأة ؛ وما عهدنا بالمبدعين والمخترعين إلا مبتدئون يوحون الفكرة ، حتى يحين الزمن ، فيأتى غيرهم فيتمها . أما أنت أيها الشيخ الجليل ، فقد حباك الله بما لم يرزق به غيرك ، حباك ببعد نظر وتتبع للمسائل وتدقيق لأصولها واستخراج لكنهها ، فكأن الأشياء

تنطق لك ، وتهديك إلى سرها ، فدك الله بالعمر ، وجزاك الجزاء الأوفى على خدمتك للغته الشريفة . وعكف الخليل على اختراعه ، واستخرج تراكيب الحروف على الوجه السابق ، وميز المهمل من المستعمل منها ، ووضع مقدمة كتاب العين . وكان يشرك الليث معه فى عمله . ثم بدا له أن يجعل الكتاب تاماً ، بحيث لا يقتصر فيه على حصر مفردات اللغة وتمييز مهملها من مستعملها ؛ بل يتعداه إلى وضع معنى كل لفظ ومشتقات كل مصدر . وسر الليث بهذا الرأى سروراً عظيماً وقال : إن فى هذا الغاية . وما شىء يعادل تحديد معانى الألفاظ حتى لا يخرج عنها . فقال الخليل : هو كما تقول ، وأرى رغبتك فيه وحسن ذوقك كفيلين بإتمامه وتحقيقه ؛ فإليك كتاب العين ، فاشرع فيه منذ اليوم . قال الليث : كيف أجرؤ على ذلك بوجودك ، وأى حق لى بأن أعمل فيه ، وأضيف من رأيى ، وأنت صاحبه . كلا ، إن ذلك خروج على نصاب الحق ، وعدول عن نهج الصواب . قال الخليل : إنى شخت يابنى ، ولم يعد عندى من الحيل والقوة ما يدفعنى إلى عمل يقتضى عدداً كبيراً من السنين ، على أنى مستعد لقراءة ما تحرر ، وللجواب عن كل سؤال يجول فى خاطرك .

أما حقي فى الكتاب ، أفترى أن يكون سبباً لمنع إتمامه ، وقد ذكرت لك تقصيرى فى ذلك . قال الليث : سأشرع فى إتمام الكتاب على نهجك الذى رسمته لى ، وستكون صاحبه أولاً وآخراً ، وسأقحم فيه أقوالك وتقييداتك فى اللغة التى جمعتها فى دفاترك ، فهل تسمح لى بهذه الدفاتر ؟ قال : هى لك ، ولا تتهيب السؤال منى ومن غيرى ، فالعلم ياصاحبى ليس ملكا لأحد ، ولا وقفاً على إنسان . وستجد عند فلان وفلان كثيراً من الأشياء التى أجهلها . فهيا ياصاح إلى عملك وفقك الله . انقطع الليث إلى هذا العمل ؛ وكان يقرأ ما يخرج منه على الخليل ، فيقره عليه ، وينبهه إلى ما يقتضى إصلاحه ، حتى مضى فى الكتاب شوطاً .

قال الخليل لليث يوماً : لقد أوليتنى يابنى من العناية وحسن الصحبة ما أنا شاكره لك وحافظه فى طيات قلبى . قال الليث عفواً ياسيدى الشيخ : فإنك صاحب الفضل والإنعام ؛ فقد أجبتنى إلى أمر لم تجب إليه من هم أكبر منى تأناً ، وأعظم جاهاً وأوسع سلطاناً ، ولست إلا تلميذاً لك يرى من حقك عليه ومن كامل سروره أن يوفر لك الراحة ما استطاع . ولكنى أراك تريد أن تنتهى من هذا الكلام إلى شىء آخر . قال

الخليل : أجل ، لقد قرب موعد خروج الحاج . وقد اشتقت إلى مناجاة الله عند كعبته ، ورجائى إليك أن تأمر أصحابك ليهيئوا لى سبيل الخروج مع من يخرج . نظر الليث إليه نظر المغتم الحزين، فقد كان يحب أستاذه أكبر حب ، وقد تعشق منه أخلاقه الفاضلة ونفسه الطيبة ، ووجد عنده من الفوائد ما لم يلقه عند إنسان ، فقال وقد اضطرب صوته : لن أستطيع إلا أن أذعن لرغبتك ، لا سيما وقد قصدت أمراً مهيباً صالحاً . ولكن عدنى بأن تعود إلى خراسان بعد قضاء الحج . قال الخليل : سأمكث فى البصرة قليلا ، حتى إذا أسعفنى الله بقوة على العودة عدت إليك ، ورأيت ما تم بكتاب العين ، و إن لم يكن ففى ذمة الله . وخرج الخليل بعد أيام و بلغ مكة ، فحج وعاد إلى البصرة فكان له أحسن استقبال ، وأجمل زينة ، وخطب الخطباء والشعراء فى استقباله ، وحضوا أهل البصرة على ألا يمكنوه من الخروج من البصرة ، فهو سيدها وشيخها ، ولا يجوز للسيد أن يغادر ملكه و يترك رعيته . والتأمت الحلقة فى اليوم التانى ، واجتمع الطلاب ، وعاد الخليل إلى سابق عهده ، وهو أنيس بهذه البلدة التى هى سيدة الأدب بين البلاد .

الفصل العشرون

لفت نظر الخليل فى حلقته شاب جميل نظيف أنيق ، كثر تردداه إليها ، وصموته فيها ، وملازمته لها فى أقرب مجلس منه ؛ فصار الخليل يمعن النظر فيه حيناً بعد حين ، فيراه منكباً على تقييد أقواله ، وكأنه يريد أن يلتهم علمه التهاماً ، فيسره ما يرى منه ، وينتظر انتهاء الدرس ، فيراه وقد حمل ألواحه ، وتنحى جانباً يدارسها ويقلبها ؛ فيقعد الخليل قريباً منه ، ويراقبه دون أن يشعره بوجوده ؛ على أن هذا كان مطرقاً لا يلوى على شىء إلا تلك الأوراق . نهض الخليل من مكانه ، واتجه إليه فجلس بحذائه ، فالتفت هذا ، فوجد شيخه ، وقد قصد نحوه ؛ فاضطرب بعض الشىء ، وغير من جلسته احتراماً للأستاذ ، فأومأ إليه هذا بألا يفعل ، وقال له : لقد استحسنت عكوفك على الكتابة فى حلقتى ، وسرنى منك حسن انتباهك إلى ما أقول ، وأراك تختلف عن غيرك من الطلاب ، وأقدر أنك ناجح فيما قصدته ،

فمن أى قوم أنت؟ قال: من بنى الحارث بن كعب ومولاهم، ويلقبنى الناس بسيبويه قال: فما أقدمك بلدتنا؟ قال: حبى للعلم ورغبتى فى التحصيل قال: كم لك من الزمن فى البصرة؟ قال: عدة أشهر. قال: وما الذى رغبك فى العربية؟ قال: إن لذلك قصة، وهو أنى شرعت فى طلب الحديث تبركا، فحصل لى منه بعض العلم، ولما قدمت البصرة، أدخلت على حماد بن سلمة بن دينار، وهو كما تعلم من شيوخ الحديث عندكم، فأحسن لقائى، واختبر علمى، وأراد تشجيعى، فعهد إلى بمرافقته إلى الدرس وبالاستملاء عليه؛ فصرت أرافقه، وأقف بين يديه أستمع إلى الأحاديث التى يذكرها فأعيدها على الحاضرين، بصوت عال يسمعونه، فأستفيد معرفة من قربى إلى الشيخ، وإلقائى بين يديه، وأفيد المستمعين بابلاغ كلامه إليهم. قال الخليل: وزبدة القول أنك أصبحت مستمليه، وهذا يدل على حسن ثقته بك وحسن عنايته بأمرك، فماذا حصل بعدها؟ قال: كنت ألقى بين يديه يوماً، وإذا به يروى الحديث الآتى: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أحد من أصحابى إلا من لو شئت لأخذت عنه علماً، ليس أبا الدرداء، فأعدت هذا الحديث على الحاضرين، ولكنى

رفعت لفظ أب من قــوله ليس أبا الدرداء ، فقلت ليس أبو الدرداء ، فاستوقفنى الشيخ . وقال : لحنت ياسيبويه ، فأصابنى من الخجل الشيء الكثير ، وانصب العرق من جبينى ، وكبر عليّ أن أغلط بحضر الشيوخ والفقهاء وطلاب العلم ، وأقررت بغلطى فقلت : لاجرم أنى غلطت ، ثم أنشأت أقول : ولكنى لن ألحن بعدها أبداً ، وسأطلب ذلك العلم الذى يعصمنى من اللحن ، ولن أعود إلى هذا المجلس إلا وقد أتقنته ، ثم استأذنت الشيخ ، وأعددت العدة لحضور دروسك ، فأنا منكب عليها مستفيد منها . قال الخليل : حللت أهلا ووطئت سهلا يابنى، وإنك لترانى جد مسرور بك ، ولك إذا شئت أن تحضر إلى دارى ، فإنى أعقد فيها دروساً للخاصة ومجالس للاخوان ، و إنك لمنهم . فأقبل سيبويه على يدى الخليل يقبلهما و يشكره .

كثر تردد سيبويه إلى مجلس الخليل ، وكان كلما قدم عليه ، قال له مالم يقله لغيره فقال : « مرحباً بزائر لا يمل » و بش له وقال : هات ما عندك ، فينطلق سيبويه فى السؤال يتلو السؤال ، والخليل يبتسم لذلك، و يجيب مسروراً ضاحكا ، وسيبويه يكتب على ألواحه وقد وجد ضالته . كانت هذه المجالس محببة إلى

الخليل ، فقد كان يجد فيها خزائن علمه وهى تفتح فيُستفاد منها ؛ وكان يجد شخصاً عارفاً قد عمد إلى أثمن مافيها ، يستعرضه و يعجب به و يجتليه ؛ وهذا مالم يصح له مع تلاميذه الآخرين . وكان بعضهم يستمع إلى الخليل وسيبويه يتكلمان ، فلا يفهمون قولهما لبعده ، بل كان الأخفش يستوقف سيبويه فى الطريق بعد خروجه من لدن الخليل ، فيستفهمه عما استعصى عليه فهمه فى حديثهما . كان الخليل مبتهجاً بتلميذه ؛ وكان أكثر فرحاً من أستاذه ، يأخذ الجواب وكأنه ألقى إليه كنز ، وكان يذهب إلى يونس ـ ثانى الخليل فى البصرة ـ فيستعيذ هذا بالله منه حين يراه خوفاً من مسائله ، و يترقبها وجلاً ، فيلقيها سيبويه معتزاً ، فيتلعثم يونس بالجواب ، ولا يكاد ينتهى منه حتى يقول : ما قال صاحبك فيه ؟ يعنى الخليل ، فيذكر له سيبويه جوابه ، فيستحسنه و يغتم لأنه لا يصل إلى درجته .

كان الأستاذ والتلميذ مبتهجين من صحبتهما ، معجبين كل منهما بصاحبه ، ينطلقان فى ميدان المعرفة ، وقد فتح لهما بابه . أما يونس فكان مغتما ، وأما تلاميذ الخليل الآخرون فكانوا غيورين منكدين . وصح لهم جميعاً سبيل إلى بعض التشفى ،

فانطلقوا الى إراقة دم غيظهم ، وذلك أن يونس جمع أعظم فكره وأكبر عقله ، فوضع مسألة بسيطة فى ظاهرها عويصة فى طياتها ، وألقاها إلى أصحابه فى حلقته ، وفند لهم أمرها ، وأشار إلى وجه الصعوبة فيها ، فنقلها منهم إنسان ، وذهب بها إلى حلقة الخليل ، وقال متواضعاً متظاهراً بحب اكتشاف المعرفة : ما قول سيدى الشيخ بكذا ؟ قال ذلك ، ثم جاس على ركبتيه علامة الاحترام ؛ فأطرق الخليل يفكر ، وتلاميذه متململون ، يريد أحدهم لو فسح له الأستاذ السبيل إلى الجواب . أما الخليل فما زال مطرقاً ، وصاحب يونس ينتظر سريع جوابه ووقوعه بالخطأ ، وكان يغير من جلسته المرة بعد المرة ، مشيراً إلى طول إطراق الخليل ، وحاثاً له على السرعة فى الجواب . ولما وجد أن الخليل استباح لنفسه من الوقت ما يكفى لحل المسألة ، خشى أن يكون حلها ، فأظهر كثرة انشغاله وفراغ وقته ؛ واستأذن وانسحب موهماً أنه أحرز النصر . وما انطلق بعيداً ، حتى انفجر تلاميذ الخليل يقولون : إن ما سألك ليس مما يحتاج إلى فكر ، ولو أشرت إلى أحدنا بالجواب لأسرع إليه . قال : فما الجواب عندكم ؟ قالوا : كذا ، قال ، لو قلتم ذلك لزاد عليكم بسؤاله كذا فماذا يكون جوابكم ؟

قالوا ، كذا ، قال : فإنه يضيف أمراً جديداً لم تنتبهوا إليه فيقوله فما يكون جوابكم ؟ قالوا : نقول كذا ، قال : فإن قال لكم كذا فبم تجيبون ؟ فنظروا فى ذلك ، فوجدوا أنهم ضلوا السبيل بأجوبتهم ، فسكتوا وانقطعوا ، فقال : لقد لمتمونى على تأخرى فى الجواب ، ولكنى ما أجبت بجواب قط إلا وأنا أعرف آخر ما على فيه من الاعتراضات والمؤاخذات ، وقبيح بالمجيب إذا ابتدأ بالجواب أن يفكر بعد ذلك ، وليس معيباً فى حقه أن يؤخر الجواب ، فليست كل أمور العلم تحل فى ساعتها ، وما العيب إلا أن يسرع العالم فى العلم ، ثم يتبين له خطأه فيه . ألا إنه إن اخطأ ، ظهر خطأه ، وأضاع مكانته ، فزلته يضرب لها الناس بالطبل ، كما يضربون بالطبل لأكبر الحوادث .

ذلك كان شأنه فى النظر فى علم النحو وغيره ، وكذلك وصل فيه إلى أبعد غاية ، واستخرج منه قواعد أصبحت أسساً له منذ ذلك الحين . ولئن سبقه علماء عديدون فى ضبط النحو ، فهو الذى حرر ما جمعوا ، وألف بين أشتات ذلك ، وأعطى النحو صيغته النهائية . وكان أصحابه يرغبون إليه فى أن يخرج لهم كتاباً يجمع أصول النحو وقواعده فلا يفعل ؛ ولو فعل لما

ترك لغيره سبيلاً إلى الزيادة . وحق أن فى أمره عجباً ، فقد كان يحب فائدة المتأدبين ، ولم يكن يبخل عليهم بشىء فما سر بخله عليهم بكتاب يوفى لهم بالمطلوب ، وهم فى أشد الحاجة إليه ؟ لعل السبب أن عبقريته كانت تأبى عليه أن يضع كتاباً لا بد أن يحوى أصولاً ليست من وضعه ، وتحليلاً هو لغيره ، وقياساً لا يد له فيه ؛ فلئن أخرج فى النحو الشىء الكثير ، فهو إنما كان يكمل بيتاً مرفوعا ، وليس فى طبعه أن يؤلف من عمل غيره كتاباً يضيف إليه شيئاً من عمله ؛ وما هذا تكبر وخيلاء ، فما كان فى نفس الخليل ذلك ولكنه طبع قاهر . ولو أذعن لطلبات الطالبين فوضع ذلك الكتاب ، لجمح به قلمه ، فلم يرتض بأن ينسب الكتاب إلى نفسه ترفعاً عن قول مالا إبداع فيه . كذلك كان الخليل وكذلك شأن العباقرة .

ولما كثرت مسائل سيبويه — وكانت تأتى مرتبة متقنة متصلة بما قبلها — شعر الخليل أن تلميذه قد اجتاز الشوط الأول من النحو ، فلم يعد متعلماً ، بل أصبح عالماً ينظر إلى الجوهر ويجتليه ، ثم بدا للخليل اليوم بعد اليوم أن سيبويه قد اجتاز مرحلة النظر فى العلم إلى الوضع فيه والتأليف بين أشتاته ،

فقال له : لعلك ياعمرو تقصد إلى وضع كتاب فى النحو ، فنعم الرأى رأيك ؛ إنك يا بنى خير من يتصدى لذلك . قال سيبويه إنك بهذا تستحثنى على عمل قد أقف لجلالته وعظمه . قال : كلا ، لن تقف وأنا بذلك ضمين ، فأرنى يابنى ما تفعل ، وخذ منى ما أحببت ، وإنك بذلك لتلقى عن كتفى عبئاً ثقيلا ؛ فقد كنت شفوقاً على المتعلمين الذين لا يجدون كتاباً يوفيهم حقهم من الطلب .

انكب سيبويه على كتابه ، فجمع أقوال أستاذه فى النحو ، وأضاف إليها أقوال غيره ، ونظمها بعقد معرفته ، وأخرج مصنفاً دعاه هو بقران النحو ، ولكن الناس أبوا إلا أن يطلقوا عليه لفظ « الكتاب » خالصاً من الإضافة ، وكأنهم عنوا بذلك أنه الكتاب الذى ليس بعده كتاب . بلغ سيبويه بكتابه إلى ما كان يقصد الخليل منه ، بلغ إلى الإتقان أو الكمال ، لو أن الكمال يصح لإنسان ؛ وما كان ليبلغ كل ذلك لولا عون الخليل وأقواله ، ولولا روح الإتقان التى تعلمها منه . وهكذا أخرج الخليل بجمع سيبويه وصنعه كتاباً للنحو ، كما أخرج بجمع الليث معجماً للغة العربية ، وكان نصيب الابداع فى المعجم

أوفرمنه فى كتاب النحو ، فلم ير الليث غضاضة فى نسبته إليه ، ولو أن بعض العلماء أبوا أن يصدقوا ذلك لأغلاط وردت فى المعجم رأوا الخليل أجل من أن يزل فيها . وكان فكر سيبويه أكثر ظهوراً فى كتاب النحو من فكر الليث فى المعجم ، ونسبة كتاب النحو إلى الخليل أقل من أن توازى إبداع الخليل ، فلم ينسبه إليه ، ولكنه ذكر فضله فيه .

الفصل الحادى والعشرون

دخل الخليل الأسواق على مجرى عادته ، والعام هو الخامس والسبعون بعد المائة من الهجرة ، فوجد جارية تتخاصم مع بقال وهى تطالبه بدراهم أخذها منها بمغالطته إياها بحساب بينهما ، لم تستطع التحقق منه إلا حين عادت إلى البيت ، وأخبرها سيدها بخطئه وتعالجا كثيراً ، والبقال يدعى أنه أعطاها كل الحساب ، وأنها تجنى عليه بتهمتها الكاذبة . فأقبل الناس عليهما ليوفقوا بينهما . أما الخليل ، فانطلق به الفكر ، وشرد به الخيال ، وراح يبحث عن نوع من الحساب سهل قريب سريع كان بإمكان هذه الجارية أن تعمد إليه ، فلا تقع فى الإشكال الذى وقعت فيه . وقرب وقت الصلاة ، فاتجه الخليل إلى الجامع ، وهو لا يزال يفكر ، فدخله ورفع نعليه ، وتقدم فى الحرم إلى البقعة التى اعتاد أن يصلى عندها . وكان يستعرض بباله جدول الضرب ، وعليه

يرتكز حساب البيع والشراء ، وما كان بالرجل الذى يصعب عليه إيجاد حل لما فكر فيه . ولكنه ما سار بعيداً ، وما أكمل فكره ، حتى اتجهت قدماه ، وهو غير شاعر ، الى سارية (عمود) كبيرة من سوارى المسجد ، قدت من الصوان القوى ، وما زال سائراً وهو غافل عنها ، وقد أخذ منه الفكر ، حتى اصطدمت رجلاه ببيوت من الخشب أحاطت بالسارية ، يستعملها الناس لوضع نعالهم ، فاختل توازنه ، واندفع أعلاه إلى الأمام متجها إلى السارية ، فاصطدم بها وأول ما اصطدم منه رأسه ، ذلك الرأس الذى كان يشع بالذكاء والإبداع . فوقع عليها وأحدث صوتاً شديداً ، فانقلب على ظهره ، وتدحرج على الأرض مضرجاً بالدماء ، فتراكض الناس اليه ، فألفوه مبتسما ، وقد عرف أن فى هذا خاتمته ، فنقلوه إلى بيته ، فبكى أهله وأصدقاؤه عليه ، فقال لهم : « لا تبكوا ! فوالله ما فعلت فعلاً أخاف على نفسى منه وما كان لى فضل فكر صرفته إلى جهة وددت بعد ذلك أنى كنت صرفته إلى غيرها ، وما علمت أنى كذبت متعمداً قط ،

وأرجو أن يغفر الله لى التأول » . قال ذلك واستكان قليلا ثم إذا هو يصرخ من شدة الألم الذى أصابه . كان منبع هذا الألم رأسه ، ذلك الرأس الذى حوى عقلاً لامثيل له ، ذلك الرأس الذى ضم نبوغاً عربياً فائقاً ، ذلك الرأس الذى اكتشف علوماً ومعارف أبت أن تظهر لغيره ، أو يظهر بعضها لسواه . تلقى الخليل الضربة القاضية فى أعز قطعة من جسمه ، وكان قد بسط عقله وأعمل ذكاءه . كان قد استخرج مواهبه من مكامنها وأطلق سراحها لتبحث له عما يريح الانسان المسكين الغافل ، وإذا بها تصطدم بالصخر ، فتتنادى إلى مكمنها ، وترتد إلى عقالها فتجده مكسراً دامياً ، فتتخبط فيه تخبط الأعشى فى الليل وتسيل عنده دماء حارة ، وهى تصرخ مفجوعة : إنها لا تريد أن تفارق هذا الرأس العزيز ، وقد أحبته خير الحب . إنها لا ترضى بتركه ، وقد استخدمها لأحسن غاية . إنها تأبى أن تدعه ، وقد جال بها فى خفايا الأشياء . إنها لا تقوى أن تبتعد عنه وقد كان خير ملجأ لها . يا للصخر ! إنه لا يفهم ، ولو فهم لما قبل

فى حال أن يضرب هذه الرأس النابغة . يا للصخر ! إنه لا يعقل ولو عقل لأبى أن يلمس إلا فى رفق ودعة تلك الرأس التى ما كانت تفكر إلا بخير الناس . الا فما أحق أن يكتب على هذه السارية :

هنا أصيب العقل وتضرج الفكر ورقد الابداع .